# الباب الأول

# اليهود فى بلاد الحجاز

تقسيم تاريخ بنى اسرائيل فى بلاد العرب الى طورين — مراجع البحث فى الطور الاول — الموحدون للاله وعبدة الاصنام من بنى اسرائيل فى العهد القديم — أول هجرة اسرائيلية الى بلاد العرب — النص التاريخى — رأى بعض المستشرقين فيه — رأى المؤلف فى هذه الهجرة — رأى قدماء مؤرخى العرب عن وجود قبائل اسرائيلية بائدة فى الجزيرة العربية — صحف العهد القديم وحوادث بنى اسرائيل فى الجزيرة العربية قديماً — مهاجرة بطون يهودية من أوطانها الى الجزيرة فى الطور الثانى — أسبابها — أشهر البطون اليهودية فى بلاد العرب — نزولها فى مواطن اليهود القدماء — انتشار الحركة الزراعية والتجارية والصناعية فى الحجاز بنشاط اليهود — الفرق بين الطورين فى الاستعمار — سكوت المراجع اليهودية عن تاريخ بنى اسرائيل فى الجزيرة العربية — شكوك مؤرخى الافرنج فى كثير مما ذكر مؤرخو العرب عن يهود الجزيرة — هل كان يهود الجزيرة من الوجهة الدينية مثل أبناء جلدتهم ؟ — اعتناق بطون عربية للديانة اليهودية — بحث فى أسماء القبائل اليهودية — رأى اليعقوبى — رأى المؤلف — حصون وآطام اليهود فى بلاد العرب — أسماؤها العربية والعبرية — المواد التى كان اليهود يتجرون فيها — شيوع الربا عند اليهود والعرب — صناعة الصياغة عند يهود يثرب — سوق بنى قينقاع — الدوائر الزراعية اليهودية فى الحجاز — لغة اليهود فى بلاد العرب — الرطانة اليهودية — الاحبار — القضاء عند يهود الحجاز — قبلة اليهود — الصلاة — الصيام — تخلق اليهود باخلاق العرب — منزلة الشعر العربى عند اليهود — رأى الاستاذ الدكتور طه حسين فى أثر اليهود الادبى فى الجزيرة — رأى المؤلف فى شعر اليهود النزعة الشعرية عند اليهود والعرب — كيف احتفظ بشعر اليهود — السموءل بن عادياء — آراء مؤرخى العرب فيه — الاب شيخو وديوان السموءل — تحليل شعر السموءل — أهم قصائد السموءل — كعب بن الاشرف — حياته وأشعاره — اشتراك النساء فى النهضة الشعرية

رأيت أن أقسم تاريخ بنى اسرائيل فى بلاد العرب الى طورين أساسيين الطور الأول يشمل حوادث لبطون إسرائيلية بائدة فى بلاد العرب والطور الثانى يتناول أخباراً لجموع من اليهود كان لها شأن عظيم فى تاريخ الجزيرة العربية

ويقف آخر الطور الأول عند نهاية القرن الخامس قبل الميلاد أما الطور الثانى فينتهى باجلاء عمر بن الخطاب آخر الطوائف اليهودية من الجزيرة العربية

وهذا التقسيم هو الشائع عند العلماء الذين كتبوا فى تاريخ بنى اسرائيل بوجه عام . ولنتكلم أولا عن الطور الأول بقدر ما مكنتنا المصادر التاريخية التى استقينا منها معلوماتنا عن هذا الطور فانها مراجع قليلة تضطر الباحث الى بذل مجهود كبير حتى يستطيع أن يلقى شعاعا من النور يخفف به من وطأة ظلامه الدامس

كان بنو إسرائيل فى هذا الطور الأول يعبدون الله مع تقديسهم لبعض الأصنام على حين كانت طائفة منهم تعبد الله وحده مخلصين له الدين وهى طائفة الكهنة والأنبياء وبعض الطبقات من الاشراف والملوك والنقباء الذين آمنوا برسالة موسى واتبعوا شريعته(١)

وكان الموحدون للاآله فى بدء الأمر قليلين ولكنهم أخذوا يكثرون شيئاً فشيئاً على مرور الزمن وتوالى العصور حتى تأثرت العقلية اليهودية بالشريعة الموسوية وخضعت لها أفكار اليهود وامتلأت بها قلوبهم وكان ذلك فى بدء الطور الثانى بعد رجوع اليهود من السبى البابلى سنة ٥٣٨ ق . م .

ومن حيث أن المرجع الوحيد الذى يمكننا أن نستقى منه أخبار بنى اسرائيل الى القرن الخامس ق . م انما هو كتاب العهد القديم فانه يجدر بنا أن نبحث فيه لنقف منه على حوادث الطوائف الاسرائيلية التى سكنت بلاد العرب

تحدثنا صحف « أخبار الايام » عن أول هجرة مشهورة فى تاريخ بنى اسرائيل الى بلاد العرب أن بطون بنى شمعون سارت الى أرض طورسينا مع ماشيتها لتبحث لها عن مرعى الى أن وصلت أرض قبائل معان فاشتبكت معها فى قتال عنيف

---

(١) راجع كتاب المؤرخ Klausner הכתוריה ישראלית ج ١ ص ٨ وكتاب العالم سمحونى דברי ימי ישראל ج ١ ص ٣٠

انتهى بفوز بطون شمعون وتمزيقهم لأقوام من البطون المعانية شذر مذر[١]

ومع مالهذه الرواية من عظم القيمة فى بحثنا فاننـا نرى فيها غموضاً وابهاماً إذ لا نستطيع أن نعلم منها متى نزحت بطون بنى شمعون الى جزيرة العرب

غير أن العالم دوزى يحاول فى مصنفه عن بنى اسرائيل فى مكة[٢] أن يثبت أن الهجرة الشمعونية حدثت قبيل عصر الملك داود حوالى عام ١٠٠٠ ق . م فى حين يعارضه المستشرق مرجوليوث فى كتابه عن علاقة العرب بالبطون الاسرائيلية قبل ظهور الاسلام[٣] ويقرر أنها لم تحصل الا فى عصر الملك حزقياه الذى حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ — ٦٩٠ ق . م

وأما بعض المحدثين من العلماء والذين لا يريدون أن يخوضوا غمار المناقشة مع هذين العالمين فلم يتعرضوا لما قالاه بنفى أو إثبات ولكنهم يرون أنه لا يمكن التعويل على هذه الرواية المنقولة من الكتاب المقدس لقلة النصوص التاريخية القاطعة عن وجود بنى شمعون حتى أن الذى يتلو صحف العهد القديم لا يجد شيئاً عن قبيلة شمعون فى تاريخ بنى اسرائيل سوى رواية تدل على اشتراكها مع بطون بنى يهوذا فى فتح فلسطين[٤] وسوى ما جاء عن نزوحها من الديار الاسرائيلية

مثل هذه النقول القليلة دفعت هؤلاء المحدثين من المستشرقين الى أن يشكوا فى أن تكون قبيلة شمعون هذه كان لها وجود فى عالم الحقيقة[٥]

ولكنا نرى أن انكار وجود قبيلة شمعون أمر غير ميسور وقد كان لها ١٢

---

(١) أخبار الايام فصل ٤ آية ٣٨ — ٤٣

(٢) Dozy : Die Israeliten zu Mekka ص ٤٠ — ٩٨

(٣) Margolioth : The relation between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam ص ٥١

(٤) قضاة فصل ١ آية ٣

(٥) Burney : Isarael's settlement in Canaan ص ٣٧ — ٥٨

مدينـة فى جنوب فلسطين دخلت فى حوزتها بعد استيلاء يوشع بن نون على البلدان الكنعانية وأقامت فيها مدة طويلة (١)

على أن لدينا ملاحظة على الرواية المنقولة من كتاب أخبار الأيام عن هجرة بنى شمعون طلباً للمرعى فقط وهى أننا نستبعد كل الاستبعاد أن تنزح جميع بطون شمعون من فلسطين تاركة مدنها وثروتها مرة واحدة وفى وقت واحد الى بلاد أخرى ليست أخصب من بلادهم بدرجة كبيرة بل ليست هناك فوارق طبيعية بين البلاد وقد تكون البلاد التى تقول الرواية إنهم ساروا اليها طلباً للمرعى أشد اجداباً من بلادهم التى رحلوا عنها ثم لا يعودون الى موطنهم الذى منه نشأوا وفيه عاشوا على كر الزمن ومرور الأيام

معقول أن تزعج سنو المحل والقحط الناس عن مواطنهم وتضطرهم الى أن يرحلوا عنها ليجدوا مايقتاتون به ولكنهم لا يرحلون عن بلادهم جملة واحدة ولا يقصدون جهة معينة وهم مجتمعون بل يتفرقون هنا وهناك وتقصد كل فئة ناحية من النواحى المحيطة والقريبة منها ليأخذوا ما يستطيعون الحصول عليه من أسباب العيش ثم لا يلبثون أن يعودوا الى بلادهم وموطنهم ليستأنفوا فيه الحياة الهادئة الوادعة

أما أن يخرجوا من بلادهم جملة واحدة و يقصدوا جهـة معينة وهم جماعة ولا يعودوا الى بلادهم مطلقاً فهذا ما لا يكاد يوجد فى تاريخ بنى اسرائيل

ولو أغضينا النظر عن كل هـذه الاعتبارات وفرضنا صحة هـذه الرواية وصدقنا أن هذه الهجرة قد وقعت كما يصورها لنـا النص المنقول من سفر أخبار الايام فاننـا نعتقد أن تكون قد حدثت فى زمن قديم جداً فى القرن الثانى عشر ق . م . على أقل تقدير اذ لم يكن بنو إسرائيل قد عرفوا بعـد تدوين الحوادث التى تقع لهم فى صحف ، أى أنها حدثت فى زمن غير بعيد من عهد الاحتلال الاسرائيلى للبلاد

---

(١) كتاب يوشع بن نون فصل ١٩ آية ١ — ٩ وصحف الاخبار ج ١ فصل ٤ آية ٢٨

وكما أن حوادث الفتح لم تصل الينا واضحة وافية كذلك وصلتنا أخبار شمعون فى روايات غامضة وذلك لان بنى اسرائيل بعد توغلهم فى فلسطين بقوا زمنا غير قليل محتفظين بصفات ومميزات سكان الصحارى فى أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ونفورهم من كل أنواع التغيير والتجديد

وقد مضت عليهم قرون عدة وهم فى همجيتهم الاولى حتى دار الزمن دورته وأخذت الاحوال الاجتماعية والادبية تتبدل وتتحول الى أن ظهر عند الشعراء والمفكرين ميل شديد الى تدوين أخبار العصور الماضية وذكر أيام القبائل الاسرائيلية و بيان أوطانها التى نزحت عنها والظروف التى دعت الى تركها وكان غرضهم من ذلك أن يحافظوا على أنسابهم وأن يشيدوا بما كان لهم من مجد وسؤدد

أما فيما يتعلق ببلاد وقبائل معان فان المستشرقين قد اتفقوا على أنها قد سكنت بين جهات يثرب ومكة و يعتمدون فى ذلك على أقوال الجغرافى سترابو الذى جاء باسماء دول الجزيرة العربية مرتبة على هذا المنوال :

قبائل معان وعاصمتها قرنا

قبائل سبا وعاصمتها مارب

دولة ثمنا وكانت فى جهات باب المندب

مملكة حضرموت وعاصمتها سبوة

و يتضح من وصف بلينوس ( Plinus ) لاهل معان أنهم كانوا على جانب عظيم من القوة والبطش وكثرة العدد ووفرة المال[١] و يسرد لنا العالم جلازر ( Glaser ) فى كتابه الذى صنفه عن بلدان الجزيرة العربية حوادث كثيرة لبطون معان وعلاقتها مع أمم فلسطين وأساس بحثه قائم على منقوشات قديمة عثر عليها فى جهات مختلفة من تلك الاصقاع[٢]

---

(١) دوزى ص ٦٦ — ٦٨ مرجوليوث ص ٥١

(٢) Glaser : Skizzen und Gleschichte Arabiens bis Moh. Glaser : Sammlung

وتذكر لنا صحف العهد القديم من أخبار بنى اسرائيل عدا هذه الهجرة أن بلاد طورسينا وشمال الجزيرة بوجه عام كانت ملجأ يقصد اليه كثير من بنى اسرائيل الذين كانوا يفرون من وجه الملوك والحكام الظالمين[1] ثم فى عهد الملك بختنصر فانه حين غزا أورشليم قصدت جموع من اليهود أرض الجزيرة[2].

ولم تغفل المصادر العربية الاشارة الى أن قبائل اسرائيلية كانت تسكن بلاد العرب منذ زمن قديم جداً فقد قال صاحب الاغانى « كان ساكنو المدينة فى أول الدهر قبل بنى اسرائيل قوماً من الامم الماضية يقال لهم العماليق وكانوا قد تفرقوا فى البلاد وكانوا أهل غزو و بغى شديد وكان ملك الحجاز منهم يقال له الارقم ينزل ما بين تيماء الى فدك وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزرع وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود الى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم فبعث موسى الى العماليق جيشاً من بنى إسرائيل وأمرهم أن يقتلوهم جميعاً اذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحداً فقدم الجيش الحجاز فأظهرهم الله على العماليق فقتلوهم أجمعين إلا ابناً للارقم كان وضيئاً جميلا فضنوا به على القتل وقالوا نذهب به الى موسى فيرى فيه رأيه فرجعوا الى الشام فوجدوا موسى قد توفى فقالت لهم بنو اسرائيل ما صنعتم فقالوا أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير غلام كان شاباً جميلا فنفسنا به عن القتل وقلنا نأتى به موسى فيرى فيه رأيه فقالوا لهم هذه معصية قد أمرتم ألا تستبقوا منهم وأن لا تدخلوا علينا الشام أبداً فلما صنعوا ذلك قالوا ما كان خيراً لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز نرجع اليها فنقيم بها فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة فنزلوها وكان ذلك الجيش أول سكنى اليهود بالمدينة[3]

(١) ملوك ج ١ فصل ١٩
(٢) أرميا فصل ٤٠ آية ١١
(٣) الاغانى جزء ١١ ص ٩٤ ( ان مؤرخى العرب لم تكن لديهم كتب لمتقدميهم فى ذلك

ويضيف ابن خلدون الى هذه الرواية أنه يشك فى صحتها لأنها لم توجد عند اليهود ولأن اليهود لايعرفون هذه القصة [١]

ثم يحدثنا ابن خلدون أن داود لما خلع بنو إسرائيل طاعته وخرجوا عليه فر مع سبط يهوذا الى خيبر وملك ابنه الشام وأقام بخيبر الى أن قتل ابنه وعاد الى وطنه فيظهر من هذا أن عمرانه كان متصلا بيثرب ويجاوزها الى خيبر [٢]

غير أننا نرى أنه لا يمكن التعويل على أقاصيص من هذا النوع سردتها المراجع العربية على أنها أساطير شائعة وروايات غير جديرة بالاعتماد عليها واذا لم يكن مؤرخو العرب قد استطاعوا أن يصلوا الى أخبار ثابتة موثوق بها عن بنى النضير وقريظة ومتى كان ظهورهم فى بلاد العرب فكيف يستطيعون أن يصلوا الى أخبار حقيقية عن طوائف إسرائيلية قديمة بادت واندثرت من قبل أن يوجد بنو النضير وقريظة ؟ . . .

كذلك لايمكننا أن نطمئن الى الاخبار القليلة التى نصت عليها بطريقة غير مباشرة صحف العهد القديم عن وصول جموع إسرائيلية الى الجزيرة العربية ولا نستطيع أن نثبت هذه الأخبار اثباتاً حقيقياً

وانما الذى يمكننا أن نقوله على سبيل الظن اعتماداً على هذه الأخبار هو أن القدماء قد اعتقدوا أنه قد وجدت فى جهات يثرب وخيبر بطون اسرائيلية قبل وصول جموع اليهود الى الأصقاع العربية فى الدور الثانى

ويؤيد هذه النظرية ما نجده فى كتاب العهد القديم من النص على وجود علاقة

---

وهم انما يعولون على ما رأوا فى سفر العدد من حروب بنى اسرائيل والمدينيين والاموريين وغيرهم ويتوسعون فى ذلك الى أرض الحجاز ويزيدون على ما عند الاسرائيليين بغير سلطان أتاهم ( رأى الاستاذ الشيخ النجار )

(١) تاريخ ابن خلدون جزء ٢ ص ٨٨

(٢) تاريخ ابن خلدون جزء ٢ ص ١٨٦ اما رواية ابن خلدون أن داود ذهب الى خيبر فلا يوجد ما يصححها وداود لم يجاوز محنايم

متينة بين بلاد فلسطين وبلاد الجزيرة العربية

كانت فلسطين بمثابة القنطرة التي تربط بلاد العرب وسورية من جهة ومصر والعراق من جهة أخرى وكانت القوافل العربية تأتي من بلادها الى أسواق مدن بني اسرائيل وكنعان (١) وكان تجار اليهود يرحلون الى سبأ في عهد سليمان و بعده (٢)

كذلك نعلم ان بعض ملوك بني اسرائيل انتصروا انتصارات باهرة على قبائل عربية وعمالقة غزوها وانهم واصلوا غزواتهم حتى وصلوا الى أرض الجزيرة (٣)

و نعلم أيضاً ان مدينة العقبة ( ايلة ) كانت في عصر من العصور مستعمرة يهودية (٤) والخلاصة ان عناصر اسرائيلية يظن انها قد هاجرت من ديارها الى الاقاليم العربيـة في عصور مختلفة ولاسباب شتى غير انهـا بادت كما بادت قبائل عربية كثيرة ولم يبق من آثارها سوى اسمها

وقد حاول بعض المستشرقين ان يجدوا علاقة بين حوادث وقعت لقبـائل عربية بائدة من جرهم وغيرها وبين اخبار رويت عن بطون اسرائيلية قديمة كانت في الجزيرة العربية (٥) ولولا قبح الاعتماد على الحدس والتخمين لتابعت من كتب في هذا الباب من المستشرقين ولكني أوثر الاحتياط وافضل الاكتفاء بهذا المقدار لأنتقل الى الـكلام عن طور اليهود الثاني في بلاد العرب

أخذت جموع كثيرة من اليهود في القرن الاول والثاني بعد الميلاد تهاجر الى الأرجاء العربية عموما والى الربوع الحجازية بنوع خاص ولا شك انه كانت هناك أسباب دعت هـذه الجموع الى ترك أوطانهـا والنزوح منها الى البلاد العربية ويمكننا ان نلخص هذه الأسباب فيما يأتي :

(١) حزقياه فصل ٢٧ آية ٢١
(٢) ملوك جزء ١ فصل ٩ آية ٢٦
(٣) « صموئيل » جزء ١ فصل ١٥ وأخبار الايام جزء ٢ فصل ٢٦ آية ٧
(٤) ملوك جزء ١ فصل ٩ آية ٢٦ ملوك جزء ٢ فصل ٢٦ آية ٢
(٥) دوزي ص ٩٤ — ١٩٥

( ا ) زيادة عدد اليهود فى فلسطين زيادة مطردة جعلت البلاد تضيق عن أن تسعهم وتنفسح لعملهم فى سبيل الحياة وقد بلغ عددهم فى ذلك الحين أكثر من أربعة ملايين نسمة وهو عدد كبير لا تتسع له بلاد ضيقة كفلسطين فاضطروا بحكم هذه الزيادة المستمرة والنمو المطرد أن يهاجروا الى ما حولهم من البلاد المجاورة لهم كمصر والعراق والجزيرة العربية (١)

( ب ) حدث حوالى القرن الاول ق . م ان هاجمت الدولة الرومانية بلاد فلسطين وقوضت أركان الدولة اليهودية المستقلة فيها وأخضعتها لسلطان النسر الرومانى الذى قبض على زمام الحكم بيد من حديد ولكن النفور والاستياء فى نفوس اليهود كان شديدا الى حد أن الفتن والثورات العنيفة كانت تشتعل نيرانها من حين الى آخر وكان الرومان يقمعون تلك الثورات بشدة وقسوة تزيد النفور وتضاعف الاستياء فاضطر من لم يكن يستطيع البقاء فى البلاد مع هذه الاحوال القاسية ان يلجأ الى أرض الجزيرة العربية التى كانت أحب اليهم من غيرها نظرا لانظمتها البدوية الحرة ونظرا لوجودها فى أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها

( ج ) بعد حرب اليهود والرومان ( ٧٠ ب . م ) التى انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود فى اصقاع العالم قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب للمزايا التى ذكرناها كما يحدثنا بذلك المؤرخ اليهودى يوسف الذى شهد تلك الحروب وكان قائدا لبعض وحداتها

وتؤيد المصادر العربية كل هذا فقد ذكر صاحب الاغانى انه لما ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعا بالشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين منهم الى من بالحجاز من بنى اسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم فى طلبهم

---

(١) דברי ימי ישראל ج ٢ ص ١٣١

ليردهم فأعجزوه وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحارى لا نبات فيها ولا ماء فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا وسمى الموضع تمر الروم فهو اسمه الى اليوم(١)

وتتلخص آراء بقية مؤرخى العرب فى أن جموع اليهود فى الجزيرة العربية قد زادت وكثرت بعد اضطهادات الرومان لليهود وقد يجوز أن تكون هذه الروايات اتصلت بالعرب من يهود يثرب وخيبر

واذا صح ما رويناه سابقاً عن تاريخ اليهود فى الجزيرة العربية فى الدور الاول كان مؤيداً للرأى الذى يقول إن المهاجرين فى الدور الثانى قد توجهوا فى بادىء أمرهم الى الجهات التى كانت مسكونة بطوائف إسرائيلية من زمن قديم

ولقد كان لليهود الى عصور الدور الثانى بضع مستعمرات صغيرة فصارت بعد ذلك الحين كبيرة وكثيرة وظهرت مدن وقرى جديدة وآطام وحصون على رؤوس الجبال وانتشرت الحركة الزراعية فى الاراضى التى كانت منذ ألوف من السنين قاحلة ماحلة لان اليهود كانوا يشتغلون فى موطنهم الاصلى بالزراعة قبل كل شىء وكانت فلسطين غنية بحاصلات القمح والشعير والزيتون والتمر والعنب وكانت تصدر كثيراً من تلك الحاصلات الى جهات مختلفة منذ عصور قديمة

كذلك انتشرت الحركة الصناعية والتجارية وانشئت أسواق عديدة يهودية ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن الاستعمار الجديد لم يقم على حد الظبا ولم يؤد الى طرد قبائل عربية أصلية من مواطنها كما حدث فى الدور الاول الذى استأصل فيه الفاتحون من بنى إسرائيل شأفة بطون معينية وغيرها وانما الذى حدث فى الطور الثانى أن ضيوفاً مضطرين نزلوا على ابناء جلدتهم فاستقبلهم هؤلاء بالحفاوة والترحيب اذ كانوا يعلمون أنهم فارون من مخالب النسر الرومانى وسهل الامتزاج بين هؤلاء وهؤلاء بحكم الغريزة الجنسية والعاطفة الدينية وتعاون الجميع

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٥

على العمل فى سبيل الحياة فنجحوا وأثروا وكان لهم فى بلاد العرب شأن عظيم

ويجب ألا يغيب عن البال أن جهات يثرب ووادى القرى كانت غير آهلة بكثير من العرب بل كانت جموع منهم تأتى الى وديانها فى أوقات معينة من السنة كقوافل راحلة مع إبلها لتأكل من أعشابها ثم تنزح عنها الى جهات أخرى وبطبيعة الحال كان لليهود فى دورهم الثانى بالجزيرة حوادث تاريخية ذات شأن بحكم عوامل التغيير والانقلاب وبحكم اختلاف الامزجة وتعارض الاهواء وتضارب المصالح فقد كان عددهم كبيراً بحيث يمكن اعتبارهم أمة قائمة بذاتها يصيبها من ضرورات الاجتماع ما يصيب غيرها ويحدث بينها وبين جيرانها العرب ما يحدث بين أية أمة أخرى وبين من يجاورها من الامم ومع هذا فاننا نجد المصادر الاسرائيلية خالية من ذكر شىء عن تاريخ اليهود فى ذلك الدور وساكتة عن التحدث عنهم سكوتاً تاماً كأن لم يكن هناك يهود وكأن لم تحدث لهم حوادث وكان هذا السكوت موضع العجب عند الباحثين إذهم يعلمون أن الامة الاسرائيلية كانت كثيرة التدوين فى كل عصورها مغرمة بجمع حوادثها وأخبارها فى كل البلاد التى نزلت بها جموع منها

وها هى مراجع عبرية غير قليلة عن حياة اليهود فى بلاد العراق والفرس ومصر واليونان والرومان نجد فيها كل ما نتطلع اليه من اخبار اليهود فى تلك البلاد فى حين لا نكاد نجد مؤلفات عبرية عن يهود العرب الا شيئاً ضئيلا جداً لا يتجاوز بضعة نصوص اندمجت فى بعض الكتب اندماجاً عرضيا غير مقصود

ولا شك ان هذا مما يضاعف عناء الباحث ويسد فى وجهه سبل الكشف عن نواحى الحياة عند يهود الجزيرة العربية

ولكننا نستطيع أن نستنتج من هذه الناحية نفسها نتيجة ذات شأن وهى أن سكوت المراجع الاسرائيلية عن سرد حوادث اليهود فى الجزيرة العربية يدل دلالة قاطعة على أن اليهود فى بلاد العرب كانوا منقطعين تمام الانقطاع عن بقية

أبناء جنسهم فى جهات العالم ولم تكن لهم بهم أية صلة وكأن الجزيرة التى انفردت بقبائلها وانقطعت عن العالم المتمدن انقطاعا كليا قضت على كل من يسكنها من اليهود ان يكون مثل أبنائها وان يقطع كل علاقة بينه و بين يهود البلدان الاخرى

ومما لا شك فيه أن الصفات المدنية التى كانت لليهود قد زالت منهم بعد استيطانهم بلاد العرب الصحراوية البعيدة عن كل حركة عمرانية وضعفت فيهم تلك الوراثة الروحانية التى حملوها معهم الى كل بلد نزحوا اليه وأخذوا ينزلون من أوج المدنية والحضارة شيئاً فشيئاً حتى وقعوا فى هوة الهمجية وصاروا مثل غيرهم من سكان تلك الجزيرة المنعزلين عن جميع العالم والمكتفين بأبسط أنواع الحياة

وان أمة تغفل تدوين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قرائحها لتورثها لخلفها لآيلة حتما الى أحط أنواع الهمجية مهما كانت درجتها فى الحضارة والعمران(١)

لم يظهر شىء من النبوغ والعبقرية فى يهود بلاد العرب مطلقاً ولم تشتهر من بينهم شخصية واحدة فى كل عصورها بالرقى الفكرى وان كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب الى المدنية من بقية العرب هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخى العرب وعلماء الافرنج ولكن يظهر أن البيئة الجديدة شلّت قوى اليهود الروحانية فتغلبت عليهم العقلية البدوية حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفسياتهم

وكما نرجع الى المصادر العربية فى أثناء بحثنا عن حياة العرب فى الجاهلية كذلك نستمد منها أخبار اليهود فى تلك العصور

واذا كان تاريخ القبائل العربية فيها قد وجد مشوهاً تشويهاً غير قليل

---

(١) على أن هذا لم ينف احتمال وجود كتب فى التاريخ والدين دونها اليهود فى بلاد الحجاز ولكنها ضاعت فى عصر الحروب التى حدثت بين اليهود والمسلمين فى المدينة

فكذلك أخبار اليهود فيها تشتمل على مبالغات كثيرة لا يمكن أن يعتمد عليها المؤرخ المحقق

ولا ريب أن كل أمة تكتب تاريخها كما تحب وتهوى لا كما تريد الحقيقة المجردة عن كل غرض فهي تجتهد فى أن تصور الوقائع والحوادث التى تقع بينها وبين أية أمة أخرى بالصورة التى تظهرها كأنها أمة قد اجتمعت فيها كل المزايا والصفات المحمودة فى حين تصور خصومها بشكل يدل على أنهم قد جمعوا كل الصفات المذمومة

ومن أجل هذا نجد مؤرخى المسلمين قد شنوا الغارات القلمية بعد الخصومات السياسية والدينية على قريش الوثنية والطوائف اليهودية لان الرائد الأسمى فى تدوين المسلمين لاخبار الخصومات كان قبل كل شيء ذكر مجد القاهر وذل المقهورين ولو وصلت الينا أخبار الحوادث التى وقعت بين العرب واليهود فى الجزيرة العربية من مصادر اسرائيلية لكان من الممكن بواسطة المقارنة بينها وبين المراجع التاريخية العربية أن نستخلص حقائق تاريخية ثابتة

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب فى القرن الثالث ب . م . انهم كانوا ينكرون وجود يهود فى الجزيرة العربية و يقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود فى جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على الديانة الآلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما (١)

وكان العالم شير يعتقد أن اليهودية فى بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة . كانت يهودية فى اساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودى (٢)

ويحدثنا صاحب الاغانى عن الأماكن التى نزل بها اليهود فى الدور الثانى فيقول: لما قدم بنو النضير وقريظة و بهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها و بيئة فكرهوها

---

(١) Graetz ج ٣ ص ٧٥

(٢) « ج ٣ ص ٥١

بعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم نزلا سواها فخرج حتى أتى العالية وهى بطحان ومهزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع اليهم فقال قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها الى حرة يصب فيهما واديان على تلاع عذبة ومَدَرَة طيبة فى متأخر الحرّة فتحول القوم اليها من منزلهم فنزل بنو النضير ومن معهم على مهزور وكانت لهم تلاعه وما تبقى من بعاث وسموات فكان ممن يسكن المدينة حتى نزلها الاوس والخزرج من قبائل بنى اسرائيل بنو عكرمة و بنو ثعلبة و بنو محمر و بنو زعورا و بنو زيد و بنو النضير و بنو قريظة و بنو بهدل و بنو عوف و بنو القصيص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود . . . . وكان هناك معهم من غير بنى اسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حى من اليمن و بنو مرثد حى من بلى و بنو نيف حى من بلى أيضا و بنو معاوية حى من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهثة و بنو الشطية حى من غسان . . . .(١)

و بقيت هذه البطون العربية على أديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالى اليهود

وكانت هناك قرى كثيرة فى أرض خيبر الواقعة شمال يثرب آهلة باكثرية مطلقة من اليهود ثم هناك وادى القرى المشهور بارضه الخصبة وحدائقه الزاهرة كان أيضا من المستعمرات اليهودية ووجد اليهود أيضا بكثرة فى أرض تيماء . . .

ومن هذا يتضح ان جموع اليهود كانت منتشرة فى شمال الحجاز

و يظهر جليا من أقوال بعض مؤرخى العرب(٢) ان بطونا عربية كثيرة قد اختلطت بالعنصر اليهودى فى بلاد الحجاز وأثرت فى أخلاقه وعاداته تأثيرا ظاهرا ولكنها لم تستطع أن تتغلب على عقليته الأصلية بل بقى هذا العنصر ممتازا

---

(١) جزء ١٩ ص ٩٥ الاغانى

(٢) راجع ما نقلناه من كتاب الاغانى عن يوم بعاث فى الباب الثالث

بعقليته امتيازا ظاهرا

وينكر المؤرخ اليعقوبى وجود طوائف يهودية أصلية كثيرة فى الحجاز بل يعتقد أن أغلبها من العنصر العربى وأقلها من العنصر اليهودى ويقول ان بنى النضير فخذ من جذام الا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به ونزل بنو قريظة بجبل يقال له قريظة فنسبوا اليه (١)

ولكن من جهة أخرى تجتهد طائفة من المؤرخين الافرنج فى أن تجد لبعض أسماء القبائل اليهوديه اشتقاقا عبريا (٢)

على أن الاستدلال ببحث لغوى كهذا على جنسية اليهود فى بلاد العرب لا يمكن أن يعتمد به أو يعول عليه فمن الحق ان أسماء أكثر القبائل اليهودية عربية محضة كما يقول اليعقوبى ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس اذ يمكن أن تكون جموع اليهود التى هاجرت الى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأمكنة التى نزلت بها أسماء لها بل الواقع ان اليهود فى دورهم الثانى لم يكونوا يعرفون بانسابهم بل عرفوا كلهم بأسماء المدن والقرى والأقاليم التى جاءوا منها فكان يقال مثلا فلان الاورشليمى والآخر الحبرونى وهكذا . . . نعم كان بنو اسرائيل فى دورهم الأول ينتمون الى قبائلهم فكان يقال مثلا فلان من سبط يهوذا والآخر من قبيلة افرايم وكان اليهود فى وطنهم الاصلى قبل ان تحل بهم تلك الرزايا التى شتتت شملهم وفرقتهم أيادى سبا قد وصلوا الى درجة عظيمة من المدنية والحضارة و بلغوا مكانا عليا فى الرقى الروحانى والاجتماعى حتى امحى من بينهم نظام القبائل وصاروا أمة واحدة مندمجة اندماجا كليا حتى نسى الافراد فكرة التفاخر بالانتساب الى قبائلهم ونسيت القبائل عادة الانقباض والاحتراس من أن تختلط دماؤها بدماء القبائل الأخرى بل أصبح المجموع للافراد والافراد للمجموع كما هو شأن جميع الأمم التى تنتقل من طور البداوة الى طور الحضارة

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٩ — ٥١ طبع ليدن

(٢) ‏Ency ج ٣ ص ٧٦

وقد أشار التلمود الى مسألة الانساب الاسرائيلية مبينا انها ضاعت وذكر ان سبب ضياعها هو أن الملك هرودس اليهودى أحرق كتب الانساب الاسرائيلية (١)

ومن هنا نعرف السبب فى أن اليهود الذين نزحوا الى بلاد العرب لم يكونوا باكثر من أنهم يهود فحسب وفى أنهم لم يكونوا يتمايزون فيما بينهم الاباسماء الأماكن التى جاءوا منها

والطريقة المثلى لمعرفة جنسية اليهود فى بلاد العرب إنما هى النظر فى الاخلاق والتقاليد واتجاه الافكار والاعمال

ومن هدا السبيل نستطيع أن نحكم بان يهود يثرب خصوصاً وشمال الحجاز عموماً أقرب الى العنصر اليهودى منهم الى العنصر العربى نظراً لما وصفهم القرآن الكريم

أقام اليهود الحصون والآطام على قمم الجبال ليتحصنوا بها فى أوقات الحروب حين يغزوهم الاعراب الطامعون فى أموالهم وحاصلاتهم الزراعية أو حين تغزوهم بطون يهودية أخرى لسبب من الأسباب

ويرجح أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال فى شمال الجزيرة العربية إنما أتى بها اليهود من وطنهم الاصلى الذى كثرت فى جباله الحصون المنيعة

ومن هذه الحصون التى أقامها اليهود فى بلاد العرب حصن الأبلق للسموءل وحصن القموصى لبنى أبى الحقيق وحصون السلالم والوطيح وناعم وسعد بن المعاذ الخ . . .

وقال السمهودى ان قبائل اليهود تنيف على العشرين وعدة آطامهم وآطام من نزل معهم من العرب تزيد على السبعين جاء النهى عن هدمها (٢)

---

(١) פסחים סב

(٢) خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى ص ٨٠

ومع ان أغلب أسماء البلدان والأماكن التى سكنها اليهود فى الحجاز كانت عربية فقد وجد لبعضها اتصال باللغة العبرية مثل وادى بطحان فان معناه بالعربية الاعتماد ووادى مهزور أو محزور معناه مجرى الماء وقال السمهودى سمران جبل بخيبر صلى النبي على رأسه والعامة تسميه مسمران وضبطه بعضهم بالشين المعجمة[1] فاذا علمنا ان فى فلسطين جبلا يسمى شمران أمكننا أن نستنتج أن سمران هذا انما هو لفظ عبرى أطلقه اليهود على ذلك الجبل بعد ان نزلوا بجانبه

ويؤكد صحة هذا الاستنتاج ما قاله السمهودى من ان بعضهم ضبطه بالشين المعجمة . ثم بئر أريس فانها نسبة الى رجل يهودى اسمه أريس بلغة أهل الشام[2] ولكننا نعتقد أن هذا الاسم فى الأصل غير علم بل هو نكرة يطلق فى اللغة العبرية والآرامية على الفلاح الحارث . و بئر روما اشتراها عثمان من يهودى[3] ومعناها بالعبرية البئر العالية ( באר רמה )

وانما ذكرنا هذه الطائفة من الأسماء و بينا علاقتها باللغة العبرية لنستدل منها على أن اليهود فى بلاد العرب لم يقطعوا صلتهم بلغتهم الأصلية

والعلماء المؤرخون يهتمون بمثل هذه المسائل ليستدلوا بها على مبلغ تأثير اللغة العبرية فى اليهود وليتوصلوا الى معرفة موضوعات مختلفة من تاريخ العرب فى الجاهلية وفى عصر ظهور الاسلام

* * *

أدخل اليهود الى بلاد العرب أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات حتى عدوا من أجل هذا أساتذة لعرب الحجاز[4]

---

(١) ص ٢٨١ خلاصة الوفاء
(٢) خلاصة الوفاء ص ٢٢٦
(٣) ص ٢٣٢ خلاصة الوفاء
(٤) Wellhausen : Skizzen & Vorarbeiten Heft 4 ص ١٤



To: www.al-mostafa.com

ومنهم من حفر الآبار فى الأراضى العالية (١) ومن أجل هذا كانت أراضيهم أخصب بلاد العرب .

وكان اليهود يشتغلون بتربيـة الماشية (٢) والدجاج(٣) وكانوا فى جهات مقنا يشتغلون بصيد الأسماك وكانت نساؤهم تشتغل بنسج الأقمشة (٤)

وكانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كابى رافع الخيبرى الذى أرسل بضاعتـه بواسطة القوافل الى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة (٥)

ويمكن أن يقال ان تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصـة بهم فى شمال الحجاز . ونظراً لما كان عندهم من مال وثروة فقد كان كثير من الأعراب يرهنون عندهم بعض الأمتعة ليستدينوا منهم ما يحتاجون اليه (٦) كما يقال عن النبى محمد انه رهن درعاً بالمدينه عند يهودى وأخذ منه شعيراً لاهله(٧)

وكان أخذ الربا شائعاً عندهم حتى أن القرآن وجه اليهم بسببه أشـد تقريع وأعنف تأنيب « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للـكافرين منهم عذاباً اليما »(٨)

ولكن التعامل بالربا فى تلك العصور لم يكن خاصاً بهم بل كان العرب جميعاً يتعاملون به ولا يرون فيه شيئاً معيباً مطلقاً بل كانوا يعتبرونه نوعاً من البيع وكان

(١) Wustenfeld : Geschishte der Stadt Medinah ص ٢١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٨٥

(٣) ابن هشام جزء ٣ ص ٢٨٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٦٠

(٥) تاريخ الخميس للديار بكرى جزء ٢ ص ١٢

(٦) البخارى جزء ٢ ص ١١٦

(٧) البخارى جزء ٢ ص ١٦ و ٤٥

(٨) سورة النساء ١٥٨

للمتعامل بالربا فى مدينة الطائف شهرة فائقة عند جميع مدن الحجاز (١) وكذلك كان نصارى نجران يتعاملون بالربا (٢)

ومن الصناعات التى كان اليهود فى بلاد العرب يزاولونها، صناعة الصياغة التى اشتهر بها بنو قينقاع اذ لم يكن لهم صناعة سواها وكان لهم فى يثرب حى خاص يعرف بحى بنى قينقاع

وقد جاء فى الاغانى أن النابغة الذبيانى أقبل الى المدينة يريد سوق بنى قينقاع فلما أشرف على السوق سمع الضجة وكانت سوق عظيمة فحاصت به ناقته فانشأ يقول : كادت تهال من الأصوات راحلتى . . . ما رأيت كاليوم قط لولا أنهنهتها بالسوط لاجتذبت ، قد ملت الحبس فى الآطام واشتعفت (٣)

وكانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية التى كانت معروفة فى بلاد الجزيرة فى ذلك الزمن (٤)

ولا غرو أن يكونوا كذلك فن صناعة الدروع المسرودة اشتهر بها داود ( وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد ) سورة سبأ

أما الزراعة فكانت مهنة بقية البطون التى كانت تعيش فى القرى وكانت مجموعة الدوائر الزراعية لتلك البطون هى التى تكونت منها مدينة يثرب كما يتضح ذلك من وصف السمهودى المدينة (٥)

وكذلك كانت الحال فى خيبر وفى وادى القرى وتيماء التى اشتملت على أرياف كثيرة

(١) فتوح البلدان ص ٦٥
(٢) فتوح البلدان ص ٦٤ — ٦٦
(٣) هذه الشطرات مأخوذة من الاغانى جزء ٢١ ص ٦٢ وهى هناك حوار بين النابغة والربيع ابن ابى الحقيق وقد اكتفينا بهذه الاشارة مراعاة للسياق
(٤) كتاب المغازى للواقدى ص ٢٧٢
(٥) خلاصة الوفاء للسمهودى ص ٨٠

وفوق ذلك فقد كان لليهود شغف بفنون القتال والنضال وقد اشتركوا مع العرب فى بعض حروبهم المشهورة

ويتضح لنا من جواب بنى قينقاع الذى بعثوا به الى الرسول بعد يوم بدر انهم كانوا ذوى قوة و بطش إذ يقولون فيه : يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم الفرصة انا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس (١) كذلك نجد عبدالله بن أبى يفتخر بشجاعة مواليه بنى قينقاع ... (٢)

***

أما لغة اليهود فى بلاد العرب فكانت بطبيعة الحال اللغة العربية ولكنها لم تكن عربية خالصة بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركا تاماً بل كانوا يستعملونها فى صلواتهم ودراستهم فكان من الضرورى أن يدخل فى عربيتهم بعض الكلمات العبرية

وقد ذكر صاحب فتوح البلدان أن يهود يثرب كانوا أساتذة العرب فى تعلم الكتابة العربية (٣)

ويقسم القرآن يهود الحجاز الى قسمين : أحبار وجهلة أميين « ومنهم أميون لا يعلمون الكتابة الا أمانى وإن هم الا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا » (٤) وكلمة حبر هذه عبرية الأصل إذ معناها الرفيق ( חבר ) وقد كانت تطلق فى العصور الاولى ق.م على كل عضو من أعضاء الشيعة اليهودية الدينية الفروشيم ( פרושים ) ثم لما

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٥
(٣) البلاذرى ص ٤٧٣
(٤) سورة البقرة ٧٢

تغلبت تعاليم هذه الفئة أصبح كل متعلم من اليهود يلقب بلقب حبر[1] ولذلك كان الاحبار موضع الاحترام العظيم كما يتضح لنـا من قصة لابن هشام « قال عبد الله بن سلام فأدخلنى رسول الله فى بعض بيوته ودخل عليـه بعض اليهود وكلموه ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا سـيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا [2]

وكان من أعمال الأحبار أن يتولوا القضاء ويَفْصلوا للناس فيما شجر بينهم كما كانوا أصحاب الأمر والنهى فى كل الشؤون الدنيوية كما يقول القرآن الكريم « لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون [3] وكان اليهود يستأنفون الصلاة ثلاث مرات فى كل يوم وكانت قبلة اليهود أثناء الصلاة متجهة الى بيت المقـدس كما كانت قبلة رسول الاسلام الى زمن هجرته للمدينـة اذ يحدثنا ابن هشام أن الرسول كان يغدو بمكة وقبلته الى الشام فكان اذا صلى صلى بين الركنين اليمانى والاسود وجعل الكعبة بينه و بين الشام[4]

وقد يؤكد حديث البخارى هذا القول إذ يقول إن رسول الله كان أول ما قدم المدينـة يصلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكانت اليهود قد أعجبهم اذا كان يصلى قبل بيت المقدس[5]

ويحدثنا ابن هشام أن يهود يثرب كانوا يدعون الناس للصلاة بالنفخ فى البوق[6]

---

(١) הסטוריה ישראלית جزء ٢ ص ٩٩
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٩
(٣) سورة المائدة ٦٨
(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧١ و ص ٣١٤
(٥) البخارى جزء ١ ص ١٨
(٦) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠١ البخارى جزء ١ ص ١٠٦

وكان اليهود يصومون فى العاشوراء فلما قدم النبى محمد المدينة ورآهم يصومونه قال ما هذا ؟ قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال فأنا أحق بموسى منكم فصامه فأمر بصيامه وكانت اليهود تعده عيداً (١)

***

واذا وُفّقنا الى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجهة الدين والعقلية فانه من المتعذر أن نوفّق الى التمييز بين العنصرين من وجهة الاخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لان اليهود الذين سكنوا فى بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم فى النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربى

ولا أعلم فى تاريخ اليهود القديم اقليما تأثر فيه اليهود باخلاق وعادات وتقاليد أبنائه الى هذا الحد سوى اقليم الجزيرة العربية

كان اليهود فى تفاخرهم وتشاجرهم على حد ما كان العرب تماما فى جميع ذلك وكذلك كانوا مثلهم فى التمدح بالشجاعة وعلو الهمة واكرام الضيف والنفور من الجبن والبخل وكانوا يوقدون النيران فى الليل ليرشدوا السائرين وليدعوهم الى الضيافة والاكرام(٢) كما كان يفعل العرب إعلاء لشرفهم وصيانة لمجدهم .

ذكر ابن هشام ان حى بن أخطب أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وكان قد أودع رسول الله على قومه وعاقده على ذلك فلما سمع كعب بحى ابن اخطب اغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حى افتح لى اكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله ان أغلقت الحصن دونى الا تخوفت

(١) البخارى جزء ١ ص ٤٩٨
(٢) الواقدى ص ١٧٠

حشيشتك أن آكل منها فأحفظ الرجل ففتح له(١)

وكما ان قرض الشعر كان طبيعة من طبائع العرب وسجية من سجاياهم وطريقة من أجل طرق التعبير والتفكير لديهم حتى كان المفكر العربى يسترسل فى القول الموزون استرسالا يَسْحَرُ العقولَ ويأخذ بالألباب كذلك اندفع اليهود فى قرض الشعر باللغة العربية اندفاعا قويا فجعلوا ينظمون الأبيات البديعة والقصائد المتينة فى الكرم والوفاء والشجاعة وفى وصف البلدان والحيوان وفى وصف جمال المرأة والتشبيب بها . . . . وبالاجمال كل ما كان يحرك نفس العربى ويدعوه الى قرض الشعر من تهديد ووعيد ومدح وثناء وذم وهجاء ووصف ونخر كان يحرك نفوس الشعراء من اليهود فى الجاهلية ويدعوهم الى أن يخوضوا فيه بالقول الفصل والشعر المتين

بيدان ما وصل الينا من شعر يهود الجاهلية قليل جدا لا يعدو بضع قصائد وأبيات مبعثرة فى أمهات كتب الأدب العربى

وهكذا أفقدتنا الحوادث الكثيرة أكثر تلك الثروة الأدبية من أولئك اليهود الجاهليين ولم تترك لنا منه حتى ما يمكن الباحث الناقد أن يكون له رأيا واضحا عن عقليتهم وتمييز شخصياتهم بعضها من بعض

يقول استاذى الدكتور طه حسين : أما أثر اليهود الادبى فيسير الفهم لاننا نعلم كيف تؤثر هذه الحركات فى العقول ولا سيما عند العرب ونزيد على أثرهم العقلى انهم كانوا بعدائهم للأنصار ومحاربتهم اياهم شؤما على الادب العربى وسببا فى ضياع الكثير منه واختراع الكثير . . . ويصل الدكتور بعد بحث طويل الى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود

(١) ان لليهود فى الأدب العربى أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب و بين اليهود

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) ان اليهود قالوا كثيرا من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب

ان اليهود انتحلوا شعرا لاثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب . . . (١)

والذى حملنى على أن أثبت بعض نظريات استاذى الدكتور طه حسين بصدد شعراء يهود الجاهلية هو :

(١) انى قد جمعت كل ما ينسب الى شعراء اليهود فى الجاهلية ولم أجد فيه فرقا ظاهرا يميزه عن بقية الشعر الجاهلى فى حين ان هناك فرقا شاسعا لا يخفى بين اليهود والعرب من وجهة الدين والعقلية واتجاه الأفكار(٢)

(٢) لا شك فى أن اللغة العبرية تركت فى أشعارهم آثارا ظاهرة خصوصا فيما يتعلق بالشعر الدينى ( Liturgie ) فقد كانت النزعة الدينية قوية فى نفوس يهود الحجاز فليس ممكنا أن لا يوجد هناك شعر دينى يمجد التوحيد وآل موسى وأنبياء بنى اسرائيل ويحط من قيمة الأصنام وعبادتها لان مثل هذا النوع قد ظهر فى الادب اليهودى فى كل عصوره القديمة

(٣) ان الذى يمعن نظره فى قصائد السموءل يتضح له جليا انها قد طرأ عليها كثير من التقلبات والتغييرات حتى ليتعذر على الباحث أن يميز القديم منها والحديث أو يفرق بين الصحيح والمنتحل

هذا الى أن الابيات القليلة التى وصلت الينا من شعر اليهود لا تكفى لتخليد أسماء شعرائها مما يجعلنا نجزم بأنه قد كان هناك شعراء مجيدون ولكن ضاع شعرهم ولم يبق لهم منه الا أسماؤهم كأنها صدى ما كان لهم من شهرة وبعد صوت

---

(١) مجلة الجامعة المصرية سنة ثالثة ص ٧٨ من العدد الاول

(٤) اذا كان العرب أنفسهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على شعر آبائهم وأجدادهم مع انهم ظلوا كما كانوا عليه لم يصبهم شيء سوى تغيير العقيدة فبقيت لهم لغتهم وتقاليـدهم فكيف كان من الممكن أن تحتفظ بشعرها أمة غُلبت على أمرها حتى فنى منها من فنى وهاجر منها من قُدّر له أن يعيش ولكن فى غير البلاد التى نشأ فيها واطمأن اليها وضاعت ورائنهم الروحية ولم يبق لهم ذكر فى البلاد العربيـة

ليس من السهل انكار وجود شعراء من اليهود فى الجاهليـة فقد اشـترك اليهود مع العرب فى جميع المرافق الحيوية فى الجزيرة العربية من اقتصادية وسياسية فبعيد كل البعد ألا يشتركوا معهم فى النهضة الفكرية والشعرية

ووجود علاقة دموية متينة بين اليهود والعرب يثبت اشتراك العنصرين فى النزعة الشعرية وانها كانت مطبوعة فى النفس اليهودية وكامنة فيها قبل أن يسكن اليهود فى الجزيرة العربية فلما انتقلوا اليها واختلطوا بالعرب وتخلقوا بأخلاقهم نمت هذه النزعة الفطرية وأزهرت ثم أثمرت ثمرها الشهى فقرض اليهود الشعر العربى ارتجالا وتكلفاً

وعندى أن السبب فى قلة ما وصـل الينا من شعر اليهود فى الجاهلية ومن أسماء شعرائهم إنما يرجع الى ضعف اقبـال اليهود على اعتناق الاسـلام والذى حافظ على القليـل الذى وصل الينا هم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ومن تناسل منهم تخليداً لما كان لأجدادهم من مجد أثيل وشرف عظيم

وقد يجوز أنه لولم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموءل لما وصل الينا من شعره كثير ولا قليل ولا سمعنا حتى ولا باسمه

ويظهر أن الشعراء اليهود الذين وصل ذكرهم الينا كانوا يعيشون فى القرن السادس ب م. فأدرك بعضهم العصرَ الاسلامى

ولم نعرف منهم من هو أعظم شهرة وأبعد صيتاً من السموءل بن عادياء الذى يُشْعِر اسمه بأن أصله عبرى رغم ما وجد عند بعض الأدباء الأقدمين من الميل الى إثبات أن هناك صلة بينه و بين بعض الأسماء العربية وقد وجدوا لهذا الاسم فى العربية معانى مختلفة فهو اسم لطائر يكنى أبا براء وهو أيضاً الظل وذباب الخل السريع (١)

ولا نعرف من ترجمة حياته سوى النزر اليسير

وقال صاحب الأغانى انه من يثرب (٢) وكان صاحب تيماء التى عرفت بتيماء اليهودية وعليها حصنه الابلق الفرد يشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب فيه آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من عظمة وحصانة وهى خراب (٣)

وأما الأب الذى طبع ديوان السموءل حسب رواية أبى عبد الله نفطويه فله زعم غريب فى السموءل ذلك انه يزعم أن السموءل كان نصرانياً ويستند فى زعمه على ما يأتى :

(١) ان السموءل كان ينسب الى غسان وغسان كانت نصرانية

(٢) انه فى بعض أبيات تنسب للسموءل ذكر للسيد المسيح والحوار بين

أما هذه الأبيات التى استدل بها الاب شيخو فهى ما جاء فى ديوان الحماسة لابى تمام فى آخر اللامية المشهورة للسموءل

فان بنى الديان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

وكان بنو الديان كما وضح الاب شيخو من نصارى نجران (٤)

(١) قاله فى التاج ص ٧ ج ٣٨٢ راجع ديوان السموءل طبع الاب شيخو ص ٤
(٢) جزء ٦ ص ٨٢
(٣) معجم البلدان لياقوت نمرة ٦٥٣
(٤) راجع مقدمة الاب شيخو لديوان السموءل

لكن التبريزى يقول فى شرحه لهذا البيت انه لعبد الله الحارثى لا للسموءل[١]

... وقبل أن أتعرض لمزاعم الأب شيخو أريد أن أمدح فيه غيرته الدينية اذ هى التى كانت الدافع الأكبر له على طبعه ديوان السموءل وجمعه كل ما قاله العرب فى عصورهم المختلفة عن السموءل وهى التى دفعته الى أن يبذل مجهودا عظيما فى سبيل اظهار ديوان السموءل مقروناً بالشرح المفصل والملاحظات السديدة

ولم تقف نزعتـه الدينية عند هذا الحد بل حملته على أن يبذل مجهوداً شديداً آخر فى سبيل جمع أشعار أغلب شعراء الجاهلية فى مؤلف واحد وتنظيمها تنظيما بديعاً وشرح ما فيها من كلمـات غريبة كما جاء بارشادات الافرنج فى هذا الموضوع وقد أطلق على هذا السفر النفيس اسم شعـراء النصرانية بالرغم من ان الحقيقة التاريخية لا تسمح له بهذه التسمية

ولـكنه وقد أبى على السموءل أن يكون يهودياً بالرغم من أنه لم يشك أحد فى يهودية السموءل فليس عجيباً منه أن يدعى أن جميع الشعراء الذين جمع شعرهم فى سفره ليسوا الا مسيحيين

أما من جهة نسبه فلسنا ننكره ولا ننفيه لأن علماء العرب قد اختلفوا فى نسب هذا الشاعر اختلافاً كثيراً فبينما الأغانى يقول فى موضع انه السموءل بن عادياء[٢] إذا به فى موضع آخر يقول : ان غريضاً اليهودى هو السموءل بن عادياء[٣]

و بينما الميدانى فى أمثـاله يقول انه السموءل بن حيان عادياء[٤] اذا بتاج العروس يقول انه السموءل بن أوفى بن عادياء[٥] واذا بصاحب معاهد التنصيص

---

(١) ديوان الحماسة لابى تمام طبع الرافعى ص ٣١
(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ١٢
(٣) الاغانى جزء ٣ ص ١٢
(٤) امثال الميدانى جزء ٢ ص ٢٧٦ طبع مصر
(٥) تاج العروس طبع مصر جزء ٧ ص ٣٨٢

يقول انه ولد الـكاهن هارون بن عمران (١) و بينما يقولون ان قبيلته غسان اذا بغيرهم يقول ان أمه فقط التي كانت من غسان

ونحن ازاء هذا الاختلاف والاضطراب فى نسب السموءل لا نستطيع أن نطمئن الى رأى

لـكن سواء صح أن السموءل كان من غسان أو لم يصح فليس يدل ذلك على أنه كان نصرانياً بل ليس يدعو للشك فى صحة ما أجمع عليه المؤرخون من انه كان يهودياً ومن ذا الذى يستطيع أن يأتى ببرهان قاطع على أن كل بطون غسان كانت قد تنصرت بل المرجح أن البطون الغسانية التى لم تذهب الى حدود الشام بقيت على وثنيتها وان هناك بطناً من بطون غسان كونت حيا من أحياء مدينة يثرب (٢)

ومهما يكن من شىء فليس يصح للعالم المحقق أن يستدل بدين بعض بطون قبيلة واحدة على دين كل بطونها فليس من شك فى انه كانت هناك قبائل تدين بطونها بديانات مختلفة

ومن العجيب أن الأب المحترم لا ينكر أن شعبة بن غريض أخا السموءل صاحب حصن تيماء اليهودية كان يهودياً فكيف ينكر يهودية الأخ الآخر

والذى قلته عن بطون غسان يقال أيضاً عن آل بنى ديان لـكننى أضيف اليه أن الاسم « ديان » على العموم كان من الأسماء المشهورة عند اليهود فكانت كل الأسر التى تحتكر لنفسها مراكز القضاء الشرعى عند اليهود تعرف باسم آل ديان (م٦) فمن المحتمل أن السموءل الذى كان ينتمى على قول بعض المؤرخين الى الـكهان كان والده أو بعض أجداده حاكما شرعياً فأطلق على الأسرة اسم ديان

(١) معاهد التنصيص طبع مصر جزء ١ ص ١٣١

(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٥

يلاحظ الأب الفاضل على ترجمة نفطويه للسموءل ويقول : وفى ديواننا هذا يدعوه الراوى يهودياً وليس قوله مقنعاً [١] وقد تبينت انه مقنع !! . . .

أما الأبيات التى جاء بها ذكر السيد المسيح والحواريين فواضح أن من السهل على أى شاعر نصرانى أن ينحلها السموءل فى القصيدة التائية المنسوبة اليه وهذه بعض أبيات القصيدة ننقل منها ما يتعلق بموضوعنا

مدح من يعف عن الرزق الحلال

ينفع الطيب القليل من الرز
ق ولا ينفع الكثير الخبيت [٢]
فاجعل الرزق فى الحلال من الكسـ
ـب وبرا سريرتى ما حييت

خمسة أبيات ملفقة

وأتتنى الانبـاء عن ملك داو
د فَقَرَّت عينى به ورضيت
وسليمان والحوارى يحيى
ومتى يوسف كانى وليت
وبقايا الاسـباط أسباط يعقو
ب دراس التوراة والتـابوت
وانفلاق الامواج طورين عن مو
سى وبعد المملك الطالوت
ومصاب الافريس حين عصا الا
ه واذ صاب حينـه الجالوت

---

(١) ديوان السموءل ص ٥

(٢) فى نوادر ابى زيد الانصارى طبع بيروت ( ص ١٠٤ ) ان الخليل سأل الاصمعى عن الخبيت فى هذا البيت فقال يريد الخبيث وهى لغة خيبر ويروى لغة قريظة فقال له الخليل:

الرجوع الى موضوع الرزق

ليس يعطى القوى فضلا من الرز
ق ولا يحرم الضعيف الشخيت
بل لكل من رزقه ماقضى الا
ه وان حزّ أنفه المُستَمِيتُ(٣)

و يظهر ان الأب الفاضل لم يقنع بزعمه فأضاف اليــه قوله « ولعل فصـــل الخطاب فى هذا ما يقال من أن السموءل كان من احدى تلك الشيع الجامعة بين عادات اليهود وعقائد النصرانية التى اعبرت الاردن وقت حصار الروم لاورشليم فسكنت فى بلاد العرب (١)

و يظهرمن كلامه هذا انه غير عالم بتاريخ اليهود فى صدر النصرانية فان مما لا جدال فيه انه وجدت طائفة يهودية نصرانية فى بادى أمرها فى الحين الذى كانت فيــه النصرانية دعوة يهودية بحتة وكان النصارى شيعة من شيع اليهود وقد فنيت هذه الفئة بعد ان أخذت النصرانية تنتشر بين اليونان والسريان ولم يبق للطائفة اليهودية النصرانية ( secte judéo- chrétienne ) ذكر فى القرن الثالث ب.م. وليس لنا مراجع تاريخية تثبت وجود طائفة يهودية نصرانية منفردة فى الجزيرة العربية . . . . وعلى العموم فان ديوان السموءل لنفطويه مجموعة من الشعر المليح والقبيح والسمين والغث أنتجته قرائح مختلفة فمن شاعر متين الى آخر سخيف ومن شاعر مطبوع الى آخر متكلف وأغلبها مزور مدسوس على السموءل

أما القصيدة اللامية التى أولها :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فــكل رداء يرتديه جميــل

---

لو كان ذلك لغتهم لقال الكثير وانما كان ينبغى ان تقول انهم يقلبون الثاء تاء فى بعض الحروف ...

(١) ديوان السموءل لنفطويه طبع الاب شيحو ص ١٣

(٢) ديوان السموءل لنفطويه طبع الاب شيخو ص ٥

والتى يقول عنها صاحب كتاب الطراز انها تشتمل على مكارم الاخلاق من سماحة وشجاعة وتواضع وحلم وصبر وتكلف واحتمال للمكاره . . . [(١)] هذه اللامية التى خلدت اسم السموءل ذهبت فيها آراء الادباء مذاهب شتى حتى ان الاغانى يقف ازاءها موقف الحائر المضطرب فيقرر طورا انها لشريح بن السموءل [(٢)] و يقول مرة أخرى انها للسموءل نفسه و ينسبها فى موضع ثالث لشاعر غير معروف اسمه دكين العذرى (١) [(٣)]

ولا شك ان اختلاف أقوال الاغانى ناشىء من تعدد الروايات التى كانت أمامه وكذلك اختلف الرواة فى نقل القصيدة اختلافا كبيرا فمنهم من يقدم بعض أبياتها على بعض ومنهم من يعكس عمل الآخر ومنهم من يزيد فيها ومن ينقص [(٤)] فهذه الاختلافات فى نسب مؤلف القصيدة وهذه التصرفات المتباينة فى ترتيب أبياتها تنتج حتما الريبة فى نفس الباحث فى صحة نسبتها للسموءل

والذى يقرأ القصيدة الفريدة المنسوبة للسموءل فى كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى [(٥)] الذى يعتبر ثقة فى جمعه شعر الجاهلية نظراً لقدمه وسلامة ذوقه ودقة نقده يأخذه العجب حين لا يجد للسموءل إلا أبياتاً قليلة مع عدم تنبيه ابن سلام على وجود أبيات أخرى للسموءل

وقد جاء ابن سلام بقصيدة لشعبة بن غريض [(٦)] بينما نسب ابن نباته فى شرحه لرسالة ابن زيدون [(٧)] نفس هذه القصيدة للسموءل وهى القصيدة التى مطلعها

---

(١) راجع ديوان السموءل ص ٢٥
(٢) الاغانى جزء ٦ ص ٦٧
(٣) الاغانى جزء ٨ ص ١٥٥
(٤) ديوان السموءل ص ٢٥ — ٢٧
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى طبع مصر شعراء اليهود ص ١٠٩ — ١١٤
(٦) طبقات الشعراء ص ١١١
(٧) شرح ابن نباته لرسالة ابن زيدون طبع مصر ص ٥٤

يا ليت شعرى حين أندب هالكاً ماذا تُرَيثنى به أنواحى . . . . .

وللسموءل أبيات لا يشك فى صحتها القدماء

وفيت بأدرع الكندى إنى اذا ما ذم أقوام وفيت
وأوحى عاديا يوماً بأن لا تهـدم يا سموءل ما بنيت
بنى لى عاديا حصناً حصيناً و بئراً كلما شئت استقيت[1]

والذى قيل فى شعر السموءل يمكن أن يعتبر مقياساً صالحاً للبحث فى شعر بقية يهود الجاهلية إذ لا يمكننا بوجه من الوجوه أن نقول قولاً فصلا بأنها وصلت الينا عن يهود الجاهلية

والشخصية البارزة بعد السموءل هى شخصية كعب بن الاشرف وكان من أصحاب النفوذ والبطش بالسيف واللسان لا على اليهود فحسب بل على قريش أيضاً وقد كان عربياً أكثر منه يهودياً إذ كان أبوه من عرب طى وأمه من بنى النضير وقد توفى أبوه وهو صغير فحملته أمه الى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر أمره وكان شاعراً فارساً وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره فى الحروب التى كانت بين الأوس والخزرج وكان شاعراً فحلا وخطيباً فصيحاً وكان يهجو النبى و يهجو أصحابه فبعث النبى نفراً من أصحابه فقتلوه فى داره[2]

وأما الابيات التى ينسبها ابن سلام الجمحى لكعب بن الاشرف والتى تشتمل على وصف دقيق لدار وصفها وصفاً صادقاً موجزاً فانها تشهد لشاعرها بأنه كان مبدعاً فى أسلوبه معجباً بالمناظر الطبيعية وهذه هى الأبيات

رُبَّ خالٍ لِيَ لو أبْصَرْته سبط المِشْية أبّاء أنِف
لين الجانب فى أقْرَبِه وعلى الاعداء سم كالزعف
ولنا بئر رواء جمة من يَرِدْها باناء يغترف

---

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٩
(٢) الاغانى ج ١٩ ص ١٠٦

ونخيل في قلاع جَمَّة    تمزج التمر كأمثال الاكف
وحرير في مِحال خَلَّة    آخر الليل أهازيج بُدف[(١)]

وقد نسب اليه ابن هشام قصيدة في رثاء قتلى يوم بدر من سراة وعظماء مكة

طحنت رحى بدر لمهلك أهله    ولمثل بدر تَستَهِلُّ الأدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم    لا تبعدوا إن الملوك تَصَرَّعُ[(٢)]

ومع أنها تلائم الحالة السياسية التي كان عليها كعب بن الاشرف و بقية قريش بعد يوم بدر ويحتمل أن قائلها كان كعب بن الاشرف فلنا الحق أيضاً أن نشك في صحتها إذ لا يمكن على الاطلاق الاعتماد على كل ما سرد في كتاب السيرة فكثيراً ما نعثر فيه على قصائد طويلة ينسبها ابن هشام لبطون حمير في حين تدل لغتها على أن قائلها من قريش فكيف يمكننا أن نثق بنسبته هذه القصيدة الى كعب بن الاشرف ... على أن الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار يقول إن وجود شعر منسوب الى حميريين أو قحطانيين بلغة مضر لا يقتضي أن يكون مورده في السيرة قد نحله غير قائله وحمله عليه كذباً وإن كان المنسوب اليه جاهلياً

ذلك أن اللغة المضرية قد اقتحمت على لغات أهل اليمن مواطنها وتغلغلت في أحشائها وآية ذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد وفدت عليه وفود قبائل اليمن القاصية والدانية ولم يكونوا يحتاجون في مخاطبتهم لرسول الله وحوارهم له ولأصحابه الى ترجمان يعبر عما يجول بخواطر الفريقين من المعاني التي يريد كل فريق أن يلقيها الى الآخر . وهذا عليّ عليه السلام ومعاذ رضي الله عنه أرسلهما رسول الله الى اليمن ولم يحتاجا الى مترجم يترجم لكل منهما كلام من أرسلوا

(١) طبقات الشعراء ص ١١٠
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٨

اليهم . وهذا كما قلت دليل على أن المضرية قد سادت لغات العرب قبل الاسلام وصارت من القوم بحيث لا يستكثر مستكثر أن يقول بها الحميرى أو القحطانى شعره الذى يريد أن يذيعه بين العرب . . . اه

ثم إن هناك اسما آخر يلفت عنايتنا وهو سارة القريظية التى ينسب اليها شعر فى رثاء قومها بعد أن قتل أبو جبيلة أشراف اليهود حيث تقول

بنفسى أمة لم تغن شيئاً ... بذى حُرُض تُعَفيها الرياح
كهول من قريظة أتلفتها ... سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل ... يمر لأهلها الماء القَراح
ولو أرِبُوا بأمرهم لجالت ... هنالك دونهم جَأْوَى رَدَاحُ (١)

ولو صحت هذه الرواية لكان من الممكن أن نستدل بها على أن المرأة اليهودية كانت تشترك اشتراكاً فعليا فى جلب الرزق لأسرتها من ناحية وفى نمو القوى العقلية من ناحية أخرى

وليس ذلك بغريب على الفتاة الاسرائيلية بوجه عام فى جميع أدوار تاريخ أمتها إذ قد ظهر من الجنس اللطيف اليهودى النابغات والشاعرات والبطلات والملكات

---

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٦

# الباب الثاني

## ظهور اليهودية في بلاد اليمن

اسباب انتشار اليهودية في بلاد اليمن — اضطراب أقوال المؤرخين في هذا البـاب — العوامل الدينية والسياسية لظهور اليهودية في بلاد اليمن — مطامع الدول الرومانية الشرقية في بلاد اليمن — لماذا انتشرت اليهودية في بلاد اليمن ؟ — وقت ظهور اليهودية في اليمن — آراء المستشرقين — رأى المؤلف — أقوال مؤرخي العرب في ملوك حمير اليهود — أسباب اعتناقهم اليهودية — رأى ابن هشام والطبرى — أول ملوك حمير اليهود — يوسف ذو نواس — حياته كما ذكرها ابن هشام — اضطهاده أهل نجران — أسباب ذلك الاضطهاد — ذكر القرآن الكريم لقتلى نجران — استنجاد أهل نجران بالروم — اغارة الحبشة على اليمن — تحقيق الحبشة مطامع الدولة الرومانية الشرقية في بلاد العرب — عام الفيل — تأثير هزيمة الدولة الحميرية في نفوس اليهود

بعد أن بينـا الأسباب التى أدت الى انتشار الديانة اليهودية فى شمال بلاد الحجاز نريد أن نوضح العوامل الاخرى التى دعت الى ظهور الدين اليهودى فى بلاد اليمن

لم تعتمد الديانة اليهودية فى بلاد اليمن على العصبية اليهودية كما كان شأنها فى البـلاد الحجازية لان الاغلبية المطلقة التى كونت أنصار هذا الدين الجديد فى اليمن كانت من سكان البلاد الاصليين

وقد اضطربت أقوال المؤرخين فى أسباب ظهور الديانة اليهودية فى ربوع بنى حمير فطائفة منهم ترى أن ظهورها كان نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية والنصرانية تمكنت فيه الاولى من أن تتغلب على الاخرى فى بادئ الامر ومن

هذه الطائفة العلماء ( Graetz Wellhausen Halevy )

وطائفة أخرى تعترف بأن للعامل الدينى أثراً ظاهراً ولكنها ترجح أن الباعث الاصلى انما هو سياسى قبل كل شىء ومن هذه الطائفة العالمان (Glaser Winkler) وهذا الباعث الاصلى الذى تراه الطائفة الاخيرة هو أن ملوك الدولة الرومانيـة الشرقية بعد ان فرغوا من أمر الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية تأهبوا لضم أطرافها الى أملاكهم فسلكوا لتنفيذ هـذا الغرض طريقة سياسية محكمة حيث أرسلوا وفودا من الرهبان الى تلك البلاد وأمروهم أن يبثوا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ويمهدوا الافكار والنفوس لقبول التسلط السياسى الرومانى من جهة أخرى فلما تنبه ملوك حمير لهذه الحيل وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسى من الخطر الشديد بسببها نشطوا لاحباطها وفكروا فى أمضى الاسلحة التى تمكنهم من القضاء عليها فهداهم فكرهم الى أن يعتنقوا الديانة اليهودية ليقاوموا دينا توحيديا بدين توحيدى آخر

وقد أصاب ملوك حمير فى هذه الفكرة كل الاصابة لان اعتنـاقهم لليهودية قضى على كل الحجج التى كان ملوك الدولة الرومانية الشرقيـة يعتمدون عليها فى الترويج لدعوتهم السياسـية وانقطعت الوسائل التى كانوا يتوسلون بها للتأثير فى عقول أفراد الشعب وجماعاته

على أن هناك عاملين آخرين لظهور الديانة اليهودية فى بلاد اليمن لم يصرح بها المؤرخون :

الاول : أن ملوك حمير لم يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية أن تتسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع ولم يكن لليهودية فى ذلك العصر دولة سياسية فى حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة فى فتح بلادهم

ومن هنا نفهم السر فى مقاومة الرهبان واضطهاد أهل نجران والنفور من

الحبشيين لانهم جميعاً كانوا آلة فى أيدى السادة من ملوك قسطنطينية

الثانى : — وله أثر كبير فى انتشار اليهودية فى بلاد اليمن — وهو أن تعاليم الديانة اليهودية ومبادئها أقرب الى عقلية العرب من الديانة المسيحية التى كانت تستمد يومئذ بعض تعاليمها من الفلسفة اليونانية

ومع أنه كان هناك فى شمال الجزيرة قبائل عربية اعتنقت الديانة المسيحية فانى اعتقد ان النصرانيـــة كما كان اليونان وغيرهم يفهمونها لم تتغلب فى وقت ما على النفوس العربية بدليل ان البطون العربية المسيحية دخلت فى الدين الاسلامى بعد اتصالها بجيوش الخلفاء الراشدين بلا كبير مقاومة فى حين كان اليهود فى شمال الجزيرة وجنوبهـا يدافعون عن الديانة اليهودية دفاعاً شريفاً . فيقاتلون جيوش الحبشة فى اليمن قتالا شديدا رغم ما كانت عليـه هذه الجيوش من قوة البأس وكثرة العدد اللتين بواسطتهما فقط استطاعت أن تظهر على اليهود وان تفرقهم وتمزقهم

كذلك لم يُلَبِّ اليهود دعوة رسول الاسلام ولا ينقص من قيمة هذه الحقيقة ان أفراداً من اليهود دخلوا فى ملة النبى محمد وولايته

ويؤيد هذه الحقيـقة ما جاء فى البخارى حيث قل : لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود (١)

وتاريخ ظهور اليهودية فى بلاد حمير موضع جدل عنيف بين علماء الأفرنج حتى الآن

فيقرر المستشرق ( Prococke ) وهو من علماء القرن الثامن عشر ان دولة حمير اليهودية ظهرت فى القرن الاول ق . م

ولكن العلماء يعارضون فى هذا الرأى ويقولون انه لو صح هذا الحدس لكان

---

(١) البخارى جزء ٢ ص ٥١

يوسف المؤرخ اليهودى قد تكلم عن هـذه الدولة اليهودية كما ذكر ظهور دولة آرامية متهودة على أطراف نهر الفرات النائية عن فلسطين وهى دولة حُدَيب [١]

ويقرر العالم ( Silvester de Sacy ) فى كتابه[٢] ان ظهور اليهودية فى اليمن لم يسبق القرن الثانى ب . م . ولكن المؤرخ اليهودى شيفر ينكر صحة هذا الرأى ويقول لو وجدت هناك دولة يهودية فى القرن الثانى بعد الميلاد لكان التلمود يملأ صحائف غير قليلة بذكر أخبارها وسرد الأساطير عنها فسكوت التلمود عن هذه الظاهرة التاريخية أعظم دليل على عدم وجودها فى قرون تأليفه[٣] ( ختام التلمود فى القرن الرابع بعد الميلاد )

ثم ظهرت فى المجلة الاسيوية الفرنسية [٤] مقالة قيمة ناقض فيها العالم برون ( Perron ) جميع نظريات من ذكرنا ويقول ان دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا فى القرن الخامس بعد الميلاد ويستدل بما ذكره الطبرى فى هذا الشأن ويقول ان أحيحة الذى قاتل تُبان أسعد أبى كرب ملك حمير وصاحب الدعوة اليهودية طلق زوجه سلمة فذهبت الى مكة حيث تزوجت من هاشم أبى عبد المطلب جد النبى محمد وهذا يدل على ان مقاتلة تبّان أسعد لاهالى يثرب انما كانت حوالى نهاية القرن الخامس ب . م .

ثم ما ذكره الطبرى من أنه كان لتبان أسعد بنون ثلاثة حسن وعمرو وذُرْعة ، وذرعة هذا على حسب رواية ابن هشام هو ذو نواس آخر ملوك حمير

---

(١) שמחוני ج ٢ ص ١٩٢

(٢) Memoires sur divers evenement de l'histoire des Arabes avant Mahomet.

(٣) Craetz ج ٣ ص ٤٠٥

(٤) Journal asiatique 1838 Novembre p 358 (Sur l'introduction de judaisme au Yemen. )

واذن لا يمكن بوجه من الوجوه أن تكون هذه الدولة قد عاشت قبل القرن الخامس ب . م .

لا شك أن حجة بيرون ( Perron ) أمتن وأصح من نظريات غيره ممن ذكرناهم بيد أن هذه الحجة لا تنتج الجزم القاطع لانها مبنية على أقوال ليست محل ثقة تامة لان هناك شكا فى بعض الحوادث التاريخية التى ذكرناها

أما أنا فأرجح ان ظهور اليهودية فى بلاد اليمن قد حدث قبل تُبّان أسعد اذ من الصعب أن نقتنع بأن قيلا واحداً يستطيع أن يرغم أقيال حمير على اعتناق دين جديد دون أن يحدث ذلك فتنا داخلية وان عدم وجود معارضة للدين اليهودى ليدل على أنه كان هناك اناس من ذوى النفوذ السياسى سمحوا للديانة اليهودية التوحيدية أن تتسرب الى اليمن وتركوها تنتشر شيئاً فشيئاً أو ساعدوا على انتشارها بين الشعب من قبل أن يعلن تُبّان أسعد انها صارت دين البلاد

على ان المعقول أن يكون اليهود قد وجدوا فى تلك الارجاء منذ أزمان بعيدة اذ لا يمكن أن يكون اليهود انتشروا فى بلاد الحجاز فى حين لا يكون منهم أحد فى بلاد اليمن لا سيما وعدد كبير من اليهود تجار دأبهم التنقل والارتحال لتبادل البضائع فى مختلف البلدان فلا بد أن تكون هناك جموع يهودية قد وصلت الى ثغور اليمن وحضرموت ثم توغلت الى الداخل شيئاً فشيئاً

ويقول الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار إن علاقة اليهود باليمن قديمة جدا يرجع تاريخها الى أيام ملك سليمان بن داود فقد جاء فى سفر الملوك الاول فى الاصحاح العاشر آية (١) ما نصه ( وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل . فأتت الى أورشليم بموكب عظيم وكلمته بكامل ما فى قلبها الى آخر ذلك الاصحاح — والاصحاح التاسع من أخبار الايام الثانى من آية (١) الى آية (١٢) مثل عبارة أخبار الملوك الاول تكاد تكون احداها منقولة من الاخرى وكلها فى وصف سليمان وحكمته واندهاش ملكة سبأ منه وتقديمها اليه الهدايا

والتحف التى أتت بهـا من بلادها وثنائهـا على سليمان وإآه سليمان ثم عودتهـا الى بلادها — وقد وردت قصة سليمان مع ملكة سبأ فى سورة النمل وهى السورة السابعة والعشرون من القرآن من أول الآية العشرين الى آخر الآية الرابعة والاربعين ومما جاء فيها حكاية قول الملكة لقومها عن كتاب سليمان « قالت يا أيهـا الملأ إنى ألقى الىّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين . قالت يا أيهـا الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » ومنها ( فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبل وكنا مسلمين ) ومنها ( قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين )

وأخبرنى السيد محمد بن عقيل من سادات المكلاة انه قرأ فى تاريخ الجندى من نحو خمسين سنة أن اليهود حين غلب الحبشان على اليمن رحلوا الى حضرموت وكان مقامهم بتلك النواحى الى خروج الحبشان من اليمن — اه . . .

وقد أثبت العالم جلازر ( Glaser ) وجود اليهود فى اليمن وحضرموت منذ عصور كثيرة قبل ظهور الاسلام واذن فهؤلاء اليهود هم الذين أنبتوا النبات فى النفوس وتعهدوه حتى ترعرع ثم تأصلت جذوره وظهر الميل عند قبيل أو عدة أقيال لاعتناق اليهودية كما اعتنقت بطون عربية الديانة المسيحية بسبب نفوذ الرهبان وانتشار الدعوة اليهـا تدريجاً وقد كانت هناك جموع من العرب المتهودة وهى بطون كنانة و بنى الحارث بن كعب و بنى كندة سكنوا جميعاً بجوار مكة (١)

(١) Wüslenfeld ص ٢٠٩ عن ابن قتيبة ج ٣ ص ٤٠٨ Craetz

وقد يكون فى حكم الممكن انه بعد ان قفل تبان أسعد راجعاً من يثرب جمع الاقيال المتهودة وكون فيها دولة حميرية يهودية لصد هجوم الدولة الحبشية وسد السبيل فى وجه مطامعها ولمنع انتشار النصرانية التى كان ملوك الروم يتوسلون بها الى تنفيذ مطامعهم الاستعمارية

* * *

أما مؤرخو العرب فيأتون بقصة طويلة تشير الى سبب جدير بالاعتبار لظهور الدولة اليهودية فى اليمن

يقول الطبرى كان تبان أسعد حين أقبل من المشرق جعل طريقه على المدينة وقد كان حين مرّ بها فى بَدْأته خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع على تخريبها واستئصال شأفة أهلها وقطع نخلها غير أن سكان المدينة كانوا يقاتلونه بالنهار و يقرونه بالليل فأعجبه ذلك منهم فبينما هو على ذلك من حربه لهم اذ جاءه حبْرَان من أحبار اليهود من بنى قريظة عالمان راسخان حين سمعا ما يريد من اهلاك المدينة وأهلها فقالا له أيها الملك لا تفعل فانك ان أبيت الا ما تريد حيل بينك و بينهم ولم نأمن عليك عاجل العقوبة لان يثرب مهاجر نبى يخرج من هذه البلدة من قريش فى آخر الزمان فتناهى عند ذلك الذى سمع من قولهما عما كان يريد بالمدينة ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة وخرج بهما الى اليمن واتبعهما على دينهما . . . (١)

وكذلك يروى هذه القصة صاحب السيرة النبوية وغيره من بقية مؤرخى العرب دون أن يزيدوا شيئاً

بعد ذلك يقول الطبرى : لما توجه تبان أسعد الى اليمن مع جنوده حالت حمير بينه و بين دخوله الى بلاده وقالوا لا تدخلها وقد فارقت ديننا فدعاهم الى دينه وقال انه دين خير من دينكم قالوا فحاكمنا الى النار فوافق الملك وكانت باليمن

(١) نقل بتصرف من كتاب الامم والملوك للطبرى جزء ٢ ص ٢٥

نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ولما قالوا ذلك لتبان قال أنصفتم فخرج قومهم بأوثانهم وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلديها حتى قصدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت اليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر فصبروا حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما حتى جباههما لم تضرهما فأصفقت حمير عند ذلك وعند ذلك كان أصل اليهودية باليمن . . . .(١)

ولكنى أميل الى انكار صحة هذه القصة بغض الطرف عن أنها خرافة لان الامم لا تبدل أديانها كما تبدل الافراد ثيابها بل أن التغييرات السياسية والدينية انما تحصل اما بتغيير بطىء وانقلاب عقلى متدرج فى برهة طويلة مستمرة واما بالثورة العنيفة تهدم القديم مرة واحدة وتبنى الجديد مرة واحدة أيضاً . . . .

والذى نعلمه عن حسن بن تبان أسعد أبى كرب هو أنه سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى اذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير المسير معه وأرادوا الرجعة الى بلادهم فكلموا أخاً له يقال له عمرو وكان معه فى جيشه فقال له اقتل أخاك حسن ونملكك علينا وترجع بنا الى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك الا ذا رعين الحميرى فانه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه فقال ذو رعين

ألا من يشترى سهراً بنوم سعيد من يبيت قرير عين
فأما حمير غدرت وخانت فمعذرة الاله لذى رُعَين

ثم كتبها فى رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمرا فقال له ضع لى هذا الكتاب عندك فقبل ثم قتل عمرو أخاه حسن ورجع من معه الى اليمن فلما نزل عمرو بن تبان اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فلما أجهده ذلك سأل الأطباء والحزاء

---

(١) الطبرى ص ٩٦ ج ٢

من الـكهان والعرافين عما به فقال له قائل منهم انه والله ما قتـل رجل قط أخاه بغيا على مثل ما قتلت أخاك عليه الا ذهب نومه وسلط عليه السهر فلما قيل له ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيـه حسن من اشراف اليمن حتى خلص الى ذى رعين فقال له ذو رعين ان لى عندك براءة فقال وما هى قال الـكتاب الذى دفعت اليك فأخرجه فاذا فيه البيتان فتركه وهلك عمرو . . . فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له لَخْنيعة يَنوف فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة الى أن تغلب عليـه ذُرْعه ذو نواس ابن تبان أسعد أخى حسن وكان صبيا حين قتل حسن ثم شب غلاماً جميلا ذا هيئة وعقل (١)

ويمكننا أن نستنتج من هذه الحوادث أن الوهن والضعف تغلبا على الدولة بعد موت تبان أسعد أبى كرب وأن موجبات الـكراهية والتحاسد والتنافس قد فشت بين أفراد الأسرة المالكة فانفسح المجال أمام رواد الفتن ومحبى الاضطراب فلعبوا دورهم باتقان ونجاح

ولا نعلم مبلغ تأثير هذه الفتن والاضطرابات على دين الدولة ولا ماذا كانت ثورة لخنيعة ينوف متجهة الى الأسرة الحاكمة فقط أو كانت الفكرة متجهة أيضاً الى هدم كيان اليهودية فى اليمن فان جميع المصادر العربية لم تشر أقل اشارة الى شىء من هذا

ولـكننا مع ذلك نميل الى ترجيح أن يكون الثوار قد رموا بثورتهم أيضاً الى هدم اليهودية إذ لا بد من آلة يستعملونها للتأثير فى نفوس الشعب وتهييج عواطفه وخير وسيلة لذلك إنما هى أن يظهروا بمظهر المدافعين عن عقيدة الآباء والاجداد ودين البلاد الاصلى لا سيما وقد كان كثيرون من الاقيال لم يستبدلوا بعد الديانة الوثنية بغيرها

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢٨

ومن المحتمل أن الثائرين كانوا يستمدون قواهم وأموالهم من الخارج ويرجح هذا الاحتمال ما جاء فى بعض المراجع اليونانية من أن ثورة وثنية ثارت ضد ذى نواس كما سنوضح ذلك فيما بعد

وقد جاء فى المصادر اليونانية كثير من الأخبار عن ذى نواس هـذا كما جاء منها الـكثير أيضاً فى المراجع العربية

يعتقد العالم Perceval أن ذا نواس حكم بلاده من سنة ٤٩٠ — ٥٢٥ ب . م فى حين يقول شيفر إن ذا نواس ارتقى العرش سنة ٥٢٠ب — ٥٣٠ ب . م [(١)]

ويتضح لمن يبحث فى ترجمة حياته أنه لم يكن أول ملك يهودى بدليل أن تربيته كانت يهودية محضة وأنه كان فى عقليته وميوله يهودياً متعصباً لدينه مما يحمل على الاعتقاد بأنه قد لقن أساس الديانة الاسرائيلية من نعومة أظفاره

بذل علماء البحث والتنقيب جهوداً كثيرة فى سبيل العثور على شيء من آثار الدولة الحميرية المتهودة ولكنهم لم يعثروا على شيء منها مطلقاً

وهذا يدل على أحد أمرين

( ١ ) أن هـذه الدولة لم تجد من الوقت ما يكفى لانشاء الأعمال العظيمة والآثار الخالدة التى ترشد الخلف وتدل الاجيال المقبـلة على ما كان لها من قوة بأس وعظم سلطان

( ٢ ) أن الضغط الحبشى الذى قضى على دولة حمير المتهودة محا كل ما كان له علاقة باليهود وقضى على جميع آثار دولتهم لأن النزاع الذى كان بين الحبشة ودولة حمير المتهودة لم يكن نزاعاً سياسياً فقط بل كان نزاعاً سياسياً ودينياً فى آن واحد ونحن نعلم أن الحروب الدينية أشد هولاً من السياسية وفيها يبذل المنتصرون كل مرتخص وغال فى سبيل استئصال شأفة الدين المغلوب ومحو آثاره

ويحدثنا ابن هشام عن حياة ذى نواس بقوله : وتسمى ذو نواس يوسف فأقام

---

(١) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٨

فى ملكه زمناً . و بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم وهم أهل فضل واستقامة فسار اليهم ذو نواس بجنوده ودعاهم الى اليهودية فخيرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل فخد لهم الاخدود فحرق من حرق بالنار وقتل بالسيف من قتل ومثل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً . . . . [١]

والذى يعلم أن نجران لم تكن سوى بلدة صغيرة يَنْدهش لهذه المبالغة فى عدد القتلى إذ لم يكن عدد سكانها يزيد عن بضع مئات وفضلا عن ذلك فان ذا نواس لم يقتل كل أهالى نجران بدليل أن لهم ذكراً فى أخبار صدر الاسلام[٢] و إذن فليس من شك فى أن عدد القتلى من نصارى نجران لم يدرك عشرين ألفاً بوجه من الوجوه فهى مبالغة ظاهرة سببها أن اضطهاد ذى نواس للنصارى كان عنيفاً جداً حتى أنه ترك آثارا هاجت النفوس العربية فى البادية والحاضرة

وقد خلد القرآن الكريم ذكرى قتلى نجران بآيات من ذهب : قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . . . [٣]

أما المصادر اليونانية فتقول إن معاملة ذى نواس لنصارى نجران لم تكن إلا رد فعل لاضطهاد الدولة الرومانية لليهود حيث كانت تذيقهم الأمرين بواسطة عمالها فى كل بلادها باسم الدين[٤]

بعد تلك الاضطهادات التى أصابت نصارى نجران حدث : أن أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نواس وجنوده وأخبره

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٣٤
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٦٥
(٣) سورة البروج ٤ — ٨
(٤) Graetz جزء ٢ ص ٨٨

بما بلغ منهم فقال له بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين وهو أقرب الى بلادك وكتب اليـه يأمره بنصره والطلب بثأره فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً يقال له ارياط ومعه فى جنده ابرهة الاشرم فركب ارياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان وسار اليه ذو نواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن فلما التقى الجمعان انهزم ذو نواس وأصحابه ... ولم يستطيعوا الثبات أمام جيش النجاشي فاتجه ذو نواس نحو البحر وضرب فرسه فخاض به ضحضاحه حتى أفضى به الى غمره ... (١)

على أن المؤرخ اليونانى يوحنـا من مدينـة افزوس يقص خبراً لم تقصه المراجع العربية وهو أن دومينوس الحميرى قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم واستمر يُعامل تجار الروم بالقسوة والعنف و يضطهدوهم اضطهاداً شديداً كلما مر منهم أحد ببلاد اليمن حتى انقطع جميع التجار المسيحيين من دخول بلاد اليمن فأصيبت الأسواق التجارية اليمنية بالكساد وضعفت فيها الحركة ضعفاً شديداً لأن هذه الأسواق كانت تستمد حياتها الاقتصادية مما تصدره الى الخارج من الحاصلات الزراعية والمنتجات الصناعية ومما يرد اليها من حاصلات البلاد الأخرى وكانت ثغور بلاد اليمن هى الواسطة بين الهنـد و بين جميـع الاصقاع الشرقية والغربية فكانت أسواقها لذلك شديدة الحركة كثيرة المعروضات وملتقى تجار كل هذه الجهات

لم يكن من الممكن أن ينظر اليمنيون الى شـل حركة أسواقهم بعين الرضى لذلك تقدم ايدوج قيل من أقيال اليمن الوثنيين الى ذى نواس وقال له ان أعمالك القاسية ستؤدى الى نقل الحركة التجارية من ثغورنا الى ثغور أعدائنا فأجابه ذو نواس بقوله إن اخوانى اليهود فى بلاد الروم يذوقون ألواناً شتى من الأهوال

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢٩ — ٣٧ نقل بتصرف

والتعذيب فأنا أريد أن أكف أيدى الروم عن اقتراف الاثم بالابرار بمعاملتى لتجارهم هذه المعاملة السيئة . . .

ولم يرتض ايدوج هذا الجواب ولم يوافق على هـذه السياسة التى يرى أنها ستؤدى الى خراب البلاد ففكر فى أن يتخلص من ذى نواس فاتفق مع باقى أقيال اليمن الوثنيين وجمع بواسطتهم جموعاً كثيرة قاتل بها ذا نواس حتى تغلب عليه وقتله ثم اعتنق ايدوج الديانة النصرانية ....(١)

هذه هى رواية المؤرخ اليونانى يوحنا وهى تخالف ما نقلنا عن المصادر العربية من أن جيوش الحبشة هى التى قضت على دولة ذى نواس

ونحن نرجح ما روته المراجع العربية لأن انكار غزو الحبشة لليمن غير ممكن مطلقاً نظراً لأنه قد يؤدى الى انكار حوادث هامة أخرى حدثت فى بلاد اليمن والحجاز بعد ذلك بزمن قليل

على أن لدينا شهادة لقائد من قواد الجيش الرومانى الشرقى الذى كان يحارب فى العراق ضد الجيش الفارسى أثناء وقوع حوادث اليمن هذه وهو يقصها بأسلوب لا يتعارض مع ما جاء فى كتاب السيرة لابن هشام ويعرف هـذا القائد باسم ( Prokop ) پروكوب وهـذه هى شهادته : . . . وقد استعد ملك الحبشة ( Hilistiaus ) الذى كان يغالى فى دينه لمحاربة ذى نواس لأنه كان يأخذ الأموال من تجار النصارى بغيا ثم جاء بجيش عظيم الى باب المندب وشن الغارة على سواحل بلاد حمير فسار ذو نواس اليه ولكنه انهزم هزيمة منكرة وهلك (٢)

ولست أميل الى الرأى القائل بان رواية المؤرخ يوحنا من مدينة افزوس مختلقة بل أفترض أنها حدثت أثناء الاضطرابات الداخلية التى حدثت بعد قتل

---

(١) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(٢) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٩

To: www.al-mostafa.com

حسن بن تبان أسعد أبى كرب اذ قد يحتمل أن لَخْنيعة ينوف الوثنى أو غيره طمع فى عرش دولة حمير وحارب ملكا من ملوكها وقتله وحكم البلاد بعده برهة الى أن ثار أحد أفراد الأسرة التى كانت مالكة للملك المقتول وأعاد النظام الى نصابه وأخذت المياه تجرى فى مجراها

وهذا الفرض لو رجحت صحته يؤيد بقية ما أشرنا اليه من اضطراب حبل الأمن بعد ان قتل حسن بن تبان أسعد

ومهما يكن من شىء فقد كللت مساعى الحبشة وجهودها ضد الدولة الحميرية المتهودة بالنجاح وتم لها القضاء على هذه الدولة قضاء نهائيا

وقد اشترك يوسطين اشتراكا فعليا فى فتح اليمن لانه أرسل أسطول مصر البحرى مشحونا بالمؤن والأسلحة الى الثغور اليمنية ويرجح بعض مؤرخى الافرنج أن جيوش يوسطين كانت معتزمة أن تحتل اليمن بعد أن فتحتها الحبشة ولكن قوات الفرس أقلقت راحتها على حدود سورية فمنعتها من ذلك[١]

بعد ان خَضَدَت الحبشة شوكة الدولة الحميرية اليهودية فى بلاد اليمن اتجهت نحو الوثنية تريد هدمها وكان من مجهوداتها فى هذا السبيل بناء أبرهة لكنيسة القليس المشهورة فى صنعاء ليصرف اليها حج العرب[٢]

غير أن النسأة وهم رؤساء الديانة الوثنية قاوموا فكرته ووقفوا سدا فى سبيل تحقيق غرضه فصمم أبرهة على تنفيذ فكرته بالقوة وخرج بجيش كبير الى مكة يريد هدم الكعبة وابطال عقائدها غير انه لم يوفق أيضاً لان جيشه انكسر انكسارا شنيعاً فعاد منهزما الى اليمن كما يحدثنا ابن هشام بأخبار هذه الحملة المعروفة بعام الفيل[٣]

---

(١) Graetz جزء ٣ ص ٨٨

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣

(٣) ابن هشام جزء ١ ص ٤٧ — ٥٤

وقد أشار القرآن الى هذه الواقعة فى سورة الفيل حيث يقول « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول »

وقد كان لانكسار الدولة الحميرية أمام الحبشة رنة أسى شديدة فى قلوب اليهود فظهرت مع الزمن أقاصيص كثيرة وأساطير خرافية عن ابطال حمير ، فمن ذلك ما قيل ان أصل هؤلاء من بقايا أسباط بنى اسرائيل البائدة وان هذه الجيوش لم تغلب على أمرها بل رجعت على أعقابها الى داخل البلاد الرملية وانها كونت فى تلك الارجاء دولة عظيمة يظهر بطشها فى اليوم الذى يتاح لها فيه النضال و يؤذن لها بخوض المعارك

وقد كانت هذه الاقاصيص سببا فى أن شرع جماعة من اليهود فى القرون الوسطى يرسلون الى بلاد العرب ليبحثوا عن تلك الجيوش التى توارت عن العيون . . . .

# الباب الثالث

## بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود

بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود — تأثير انكسار الدولة الحميرية فى حياة اليهود ببلاد العرب — تحرش الدولة الرومانية الشرقية باليهود فى بلاد العرب — هجرة بطون الاوس والخزرج الى جهات يثرب - اضطراب أقوال مؤرخى العرب فى زمن هذه الهجرة — نص ابن هشام — رأى صاحب الاغانى — رأى الاستاذ الخضرى بك — سيل العرم وزمن حدوثه — آراء المستشرقين فيه — نتيجة ابحاث العالم جلارز فى هذا الموضوع — سوء حال الاوس والخزرج — أوائل هجرتهم — وصف السمهودى لليهود وبطون الازد اثناء سيادة الوفاق والصفاء بينهم — انقلاب الصفاء الى عداء بين اليهود وبنى الازد وأسبابه — قصة السمهودى عن الملك الفيطون — رأى المؤلف فيها — رأى صاحب الاغانى فى سبب ظهور المداوة بين اليهود والعرب — من هو أبو جبيلة ؟ — لماذا نزح ابوجبيلة لمحاربة يهود يثرب ؟ — هل كانت هناك محالفة بين بطون الازد وملوك غسان ؟ — الارتياب فى صحة قصة ابي جبيلة واضطهاده ليهود يثرب — ملوك غسان والدولة الرومانية الشرقية — الكفاح العنيف بين اليهودية والنصرانية فى الجزيرة — يوم بعاث — قيمة حوادث يوم بعاث — حياة العرب فى الجاهلية — نتائج يوم بعاث

---

يقول العلماء ان النكبة الشديدة التى نزلت باليهود فى بلاد حمير قد أنتجت نتائج سيئة لم يكن فى الامكان أن تحدث لولا هذه النوائب

وأهم هذه النتائج تحمس العناصر النصرانيـة التى كانت تعتمد على مؤازرة الدولة الرومانيـة ضد الديانة اليهودية وتحركها لهدم كيانها والقضـاء على أصولها ومبادئها فى جميع أنحاء الجزيرة العربية وتهييج طمع القبائل العربية فى أموال اليهود ومستعمراتهم ورغبتهم فى الحصول عليها والاستئثار بها

وقد كانت القبائل العربية قبل ذلك أى فى العصر الذى نمت فيه اليهودية فى بلاد اليمن وانتشرت بين سكانها لا تجرؤ مطلقا سواء منها الحضرى والبدوى على أن تمس اليهود بأذى فى شمال الحجاز أوتصيبهم بأدنى ضرر بل بالعكس تسرب نفوذ اليهودية فى ذلك الشطر من الزمن بين الاعراب حتى صاروا يدخلون فيها زرافات ووحدانا مما حمل بعض المستشرقين من أنصار Wustenfeld على الاعتقاد بانه قد ظهرت فى يثرب دولة يهودية امتد سلطانها السياسى حتى شمل شمال الحجاز بأجمعه

ولكن الواقع ان هذا رأى مبالغ فيه اذ ليس عندنا مصادر موثوق بها تؤيد وجود دولة يهودية فى شمال الحجاز اللهم الا اذا استثنينا قصة خرافية عن الفيطون ملك يثرب[1] وليس لها فى الواقع ظل من الحقيقة كما سيأتى بيانه

ونريد قبل ان نوفى حوادث اليهود مع العرب فى شمال الحجاز حقها من التفصيل والبيان أن نوجه الانظار الى البطون العربية المجاورة لهم وهى التى نلم بأخبارها بعض الالمام . يقول ابن هشام عن هجرة الاوس والخزرج الى جهات يثرب : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن انه رأى جُرَذا يحفر فى سد مارب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أراضيهم فعلم انه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده اذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم اليه فيَلْطِمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وقالت الازد لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان

---

(١) كتاب الوفاء للسمهودى ص ٨٣

فنزل آل جفنة الشام ونزلت الاوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرا . . . (١)

ويتضح لنا من قصة ابن هشام أن نزوح الاوس والخزرج الى جهات يثرب حدث قبل سيل العرم لكن صاحب الأغانى يعتقد أن خروج الازد من اليمن حدث بعد سيل العرم و يقول : لما أرسل الله سيل العرم على أهل مارب وهم الأزد قام رائدهم فقال من كان ذا جمل مفن ووطب مدن وقرية وشن فلينقلب عن بقرات النقم فهذا اليوم يوم هم وليلحق بالثنى من شن فكان الذين نزلوه ازد شنودة ثم قال لهم ومن كان ذا فاقة وفقر وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطن مر فكان الذين سكنوه خزاعة ثم قال لهم من كان منكم يريد الخمر والخمير والأمر والتأمير والديباج والحرير فليلحق ببصرى والحضير وهى من أرض الشأم فكان الذين سكنوه غسان ثم قال لهم ومن كان منكم ذا هم بعيد وجمل شديد ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان فكان الذين نزلوه ازد عمان ثم قال ومن كان يريد الراسخات فى الوحل والمطعمات فى المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكان الذين سكنوها الأوس والخزرج . . . (٢)

وأما الاستاذ الفاضل الخضرى بك فيرجح الرأى الاخير لسببين

(١) لأن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملاً خصوصاً انه سائر الى بلد لم يخبره

(٢) وردت هذه القصة فى سورة سبأ على هذا النحو « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » فهذا واضح فى أن سيل العرم أصابهم

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١٢
(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٥

و بدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها . . . (١)

والتسليم باحدى النظريتين المفروضتين فى سبب خروج بنى الازد من اليمن لا يجدينا نفعاً فى المعضلة الجوهرية وهى تعيين زمن حدوث سيل العرم

فالمراجع العربية لا تأتينا بشىء قليل أو كثير عن زمن وقوع هذه الحادثة الطبيعية المهمة فى بلاد اليمن وكان الرأى السائد عند المستشرقين أن سيل العرم حدث فى عصر قديم فى القرن الثانى أو الأول قبل الميلاد وكانت هناك طائفة من علماء الافرنج تعتقد أن كل الروايات التى جاءت عن سيل العرم انما هى خرافات وأباطيل واستمرت هذه الطائفة مقتنعة برأيها هذا حتى ظهرت بحوث العالم المحقق Glaser فى سنة ١٨٩٦ حيث قرر ارتكاناً على منقوشات جلبها من أرض اليمن أن السيل قد حدث فعلا ولكن لم يحدث فى مدة واحدة بل تكررت نوائبه مرات عديدة أما سببه فلا يرجع الى الطبيعة من حدوث أمطار غزيرة فى مرات متوالية فحسب بل كان نتيجة إهمال شديد لهذا السد العظيم نشأ عن فتن داخلية بين الاقيال من جهة و إغارات متوالية من الخارج من جهة أخرى ولما تطاولت الازمان على السد مع هذا الاهمال الشديد تصدعت جوانبه شيئاً فشيئاً ووهت أركانه قليلا قليلا

فلما حدث سيل العرم الأول فى سنة ٤٤٧ ب . م الذى استمر الى سنة ٤٥٠ تنبه القوم الى الخطر المحدق بالسد فاهتموا بأمره وأصلحوا من شأنه ولكن لم تعد له منعته القديمة فلم يحتمل السيول المتواردة زمناً طويلاً وانكسر ثانياً سنة ٥٣٢ ب . م .... (٢)

بعد هذه التحقيقات الجليلة زال الشك من النفوس فى صحة روايات سيل

---

(١) تاريخ الامم الاسلامية جزء ١ ص ١٨

(٢) راجع كتاب Zwei Inschriften uber den Dammbruch von Mareb M. d. v. G.

العرم وانمحي كل ريب في حدوثه ومال بعض المستشرقين الى الجزم بأن نزوح البطون الازدية حدث بعد سيل العرم[1]

ولكن من المتعذر على الباحث الذى يحمل فى يده مصباح عقله أن يقتنع بأن جميع البطون الأزدية هاجرت الى شمال الجزيرة بسبب واحد هو سيل العرم بل دائماً يرى أنه من المحتمل أن تكون هنك أسباب أخرى اجتمعت مع سيل العرم أو انفردت دونه واضطر بعض هذه البطون الى ترك وطنها والهجرة الى الأرجاء النائية عنه

على أنه يخيل الى أن المؤرخين أسرفوا فى التكبير من شأن سد مأرب وهو لعارفى النتائج التى ترتبت على انكساره مبالغة كبيرة اذ كان هذا السد فيما نعلمه من أبحاث ياقوت فى معجم البلدان قديماً ومن مجهودات قريحة جلازر Glaser حديثاً يسقى ربوة من الأرض لم تكن مسكناً لكل بطون الازد

ويرجح رأينا هذا ما نجده فى جميع الروايات التى تضمنت حوادثه وأخباره من الغموض والابهام والنقص الظاهر فى البيان والتفصيل مع انه حدث حوالى قرن واحد قبل الاسلام وقد تراكمت بشأنه القصص والأساطير حتى صارت عرضة لان يشك العلماء فى صحتها جميعاً ولم يرجعوا عن شكهم الا بعد ان ظهرت أبحاث العالم جلازر Glaser

واذا كان هذا شأن حادثة وقعت قبل الاسلام بقرن واحد فماذا يكون شأن الحوادث التى وقعت قبل سد مأرب بنحو خمسة قرون أو أكثر ؟ . .

وهل يمكننا أن نعول على أخبارها التى ذكرت فى السيرة وفى الطبرى وفى الواقدى ونستنتج منها نتائج ننظم بها أبحاثنا فى تاريخ الجاهلية ؟ . . .

* * *

---

(١) A literary history of the Aarbs by R. A Nicholson ص ١٦

من المتعذر علينا إذاً أن نعين الزمن الذى وصلت فيه الأوس والخزرج الى جهات يثرب فلنكتف بما قاله القدماء من انهما من أزد اليمن وانه قد وجدت هناك بطون من اليهود قبل وصولهما الى يثرب

يقول لنا صاحب الأغانى « فلما توجه الأوس والخزرج ووردوها نزلوا فى حرار ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ الى عفاء من ارض لا ساكن فيه فنزلوا به ومنهم من لجأ الى قرية من قراها فكانوا مع أهلها فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم التى نزلوها بالمدينة فى جهد وضيق فى المعاش ليسوا بأصحاب نخل وزرع وليس للرجل منهم الا الاغداق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات والأموال لليهود فلبث الأوس بذلك حيناً . . . (١)

وأقام اليهود والعرب مدة طويلة يسود بينهم الوئام والوفاق دون أن يحدث ما يكدر أو يفرق بينهم

فكانت السلطة فى أيدى اليهود ومواليهم من البطون العربية وكانت الأوس والخزرج تشتغل فى الدوائر الزراعية اليهودية ومنهم من كانوا يشتركون مع اليهود فى قوافلهم التجارية

ويحدثنا السمهودى عن حالة اليهود والازد فى دور سيادة الوئام والوفاق بينهم فيقول : . . . وقد وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدى اليهود والعدد والقوة معهم فمكثوا ما شاء الله ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاملوا ولم يزالوا كذلك زماناً طويلا وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد وخافت قريظة والنضير أن يغلبوهم على دورهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف . . . فأقاموا خائفين أن تجليهم اليهود حتى نجم منهم مالك بن العجلان . . . (٢)

١٧٠٦٠

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٦
(٢) خلاصة الوفاء ص ٨٣

ودار الدهر دورته وظهرت الفتن والعداوات بين اليهود والأوس والخزرج غير أن المصادر العربية لم توافنا بالأسباب الكافية لهذا التغيير واليك ما يقوله السمهودي : وكانت لا تهدى عروس الحيين حتى تدخل على الفيطون ملك اليهود فيكون هو الذى يفتضها فتزوجت أخت مالك رجلا من قومها فبينما مالك فى النادى اذ خرجت أخته فضلاء فنظر اليها أهل المجلس فشق على مالك فدخل وعنفها فقالت ما يصنع بى غداً أعظم أهدى الى غير زوجي فلما أمسى اشتمل على السيف ودخل متنكراً مع النساء وقتل الفيطون وانصرف لدار قومه . . . (١)

ويؤخذ من هذه القصة الملفقة أن السمهودى وأمثاله لم يكن عندهم إلمام كاف بحياة العرب فى الجاهلية بل كانوا يعتبرونهم متوحشين همجيين لا يعرفون من النظم الاجتماعية شيئاً ولا يفهمون من الآداب قليلاً ولا كثيراً ولا ينقادون إلا لما يدعو اليه الخرق والسفاهة

ولا شك أن قولا كهذا ليس إلا طعناً فاحشاً فى قبائل العرب فى الجاهلية وانكاراً شنيعاً لما هو معروف عنهم من الانفة والغيرة وإباء الضيم والشجاعة والبسالة الى حد التضحية بكل شيء فى سبيل العرض وحفظ الشرف والكرامة

ومن جهة أخرى فمثل هذا القول لا يمكن أن يكون له نصيب من الصحة لأن يهود الحجاز إنما كانوا أصحاب دين سماوى يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وليس من المعقول أن ملكاً يهودياً يرتكب جريمة منكرة كهذه تناقض روح التوراة وتخالف الايمان بآله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة وانكاراً شديداً من شعبه وأبناء جلدته

على أن اختلاق هذه القصة يظهر جلياً متى علمنا أنه لم يوجد ملوك من اليهود فى يثرب

ونرجح أن الباعث على اختلاق هذه القصة وتلفيقها انما هو محاولة إخفاء

(١) خلاصة الوفاء ص ٨٤

الحقيقة فى حادثة غدر ابن العجلان بجيرانه وسفكه لدماء الأبرار منهم كما سيأتى تفصيل ذلك

ومن الغريب أن قصة كهذه تماماً يقصها الطبرى عن طسم وجديس[١] وذلك يدل على أنها من الخرافات الشائعة عند أمم الشرق فى قصصهم وتواريخهم[٢]

ولم يأت ابن هشام والواقدى وصاحب الأغانى بقصة الفيطون بل حدثنا الأخير بخبر يبعثنا على التأمل والبحث فى عوامل التغيير الذى طرأ فجأة على ما كان بين اليهود والبطون العربية من المودة والوئام فقال « إن مالك بن العجلان رحل الى أبى جبيلة الغسانى وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه وعن منزلتهم فأخبره بحالهم وضيق معاشهم فقال له أبو جبيلة والله ما نزل قوم منا بلدا إلا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ثم أمره بالمضى الى قومه وقال له اعلمهم أنى سائر اليهم فرجع مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبى جبيلة ثم قل لليهود إن الملك يريد زيارتكم فأعدوا نزلا فأعدوه وأقبل أبو جبيلة سائراً من الشام فى جمع كثيف حتى قدم المدينة فنزل بذى حُرُض ثم أرسل الى الأوس والخزرج فذكر لهم الذى قدم له وأجمع أن يمكر باليهود حتى يقتل رؤساءهم وأشرافهم وخشى إن لم يمكر بهم أن يتحصنوا فى آطامهم فيمتنعوا منه حتى يطول حصاره إياهم فأمر ببناء حائر واسع فبنى ثم أرسل الى اليهود أن أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبق وجه من وجوه القوم إلا أتاه وجعل الرجل يأتى معه بخاصته وحشمه رجاء أن يحبوهم فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالا من جنده أن يدخلوا الحائر الذى بنى ثم يقتلوا كل من يدخل عليهم من اليهود ثم أمر حجابه أن يأذنوا لهم فى الحائر ويدخلوهم رجلا رجلاً فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك ويقتلهم الجند الذين فى الحائر حتى أتوا على آخرهم . . . .

---

(١) تاريخ الملوك والرسل للطبرى جزء ٢ ص ٣٧١

(٢) راجع كتاب الف ليلة وليلة ( الليله الاولى )

وقد أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم فقال مالك بن العجلان والله ما أثخنا اليهود غلبة كما نريد فهل لكم أن أصنع لهم طعاماً ثم أرسل فى مائة من أشراف من بقى من اليهود فاذا جاءونى فاقتلوهم جميعاً فقالوا نفعل فلما جاءهم رسول مالك قالوا والله لا نأتيهم أبداً وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل فقال لهم مالك إن ذلك كان على غير هوى منا وإنما أردنا أن نمحوه وتعلموا ما لكم عندنا فأجابوه فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك بن العجلان فقتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلاً ثم إن رجلا منهم أقبل حتى قام على باب مالك فتسمع فلم يسمع صوتاً فرجع وحذر أصحابه الذين بقوا فلم يأت منهم أحد... وصورت اليهود مالكا فى بيعهم وكنائسهم فكانوا يلعنونه كلما دخلوها . . . فلما قتل مالك من اليهود من قتل ذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفاً شديداً وجعلوا كلما هاجهم أحد من الأوس والخزرج بشىء يكرهونه لم يمش بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ولكن يذهب اليهودىّ الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيقول إنما نحن جيرانكم ومواليكم فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم . . . (١)

وقد يكون من المتعذر ان يقْبَل المؤرخ هذه القصة على علاتها إذ لا شك فى أن اليهود كانوا يحترسون من عمال ملوك الروم كل الاحتراس وكان المعروف فوق ذلك عن يهود الحجاز انهم على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وانهم ذوو قوة و بطش فلو أن أمراً كهذا وقع فعلا لأمكنهم أن يحاربوا الأوس والخزرج و يضموا الى جانبهم فى هذه الحرب جميع البطون العربية المجاورة لهم والتى لم تكن تضمر لليهود شراً

على أن أبا جبيلة هذا الذى يقول صاحب الأغانى انه كان ملكا لم يكن من

---

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٧

سلالة ملوك غسان الذين كانوا من بنى جفنة ولم يتول عرش غسان من غير بنى جفنة الا أبو جبيلة والحارث الاعرج اللذان يذكر ابن خلدون فى موضع من كتابه ان الروم ملكوهما عرش الشام(١) وان كان يذكر باسم أبى سعد أن الأعرج لم يكن ملكا وانما كان قائدا ولم يذكر أبا جبيلة البتة (٢)

وعلى فرض ان أبا جبيلة والحارث بن الأعرج توليا العرش حقا فلسنا نعلم ما هى الاسباب التى حملت قياصرة الروم على تولية ملكين من غير سلالة آل جفنة ثم ارجاع العرش الى هذه الاسرة ثانيا لان آخر ملوك غسان كان من بنى جفنة وهو جبلة بن الايهم الذى أسلم بعد ان فتح المسلمون الشام ثم ندم ورجع الى دين آبائه ودخل الى بلاد الروم(٣)

من أجل هذا نرجح ان أبا جبيلة لم يكن من ملوك غسان ولكن اذا صحت الرواية عن حادثته مع يهود يثرب فمن المحتمل انه كان قائدا ذهب بايعاز من سيده لمنازلة اليهود ويحتمل أيضا من ناحية أخرى أن تكون الاوس والخزرج قد أرادت أن تعقد حلفاً مع بعض قبائل الشمال لأن الحلف التى عقدت بينهم وبين اليهود لم تعد حائزة كل رضاهم بعد ان رسخت أقدامهم فى البلاد وبعد ان اطمأنوا اليها وانبعثت فى نفوسهم المطامع الكبيرة والآمال الواسعة

نعم ان الحلف كانت فى مصلحتهم أول الأمر لأنهم لم يكونوا يطلبون الا أن يعيشوا فلم يكن يسوؤهم أن تبقى الدوائر الزراعية والحركة التجارية فى أيدى اليهود وحدهم وأن يكونوا هم معهم كعمال ومساعدين أما الآن فقد امتدت أنظارهم الى أكثر من هذا

ولم يكن أمامهم من سبيل لتحقيق هذه الآمال والمطامع الا أن يتخلصوا

---

(١) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٢

(٢) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٥

(٣) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨١ . الاغانى جزء ١٤ ص ٣

من حلف اليهود ولم يكن سبيل التخلص من هذه الحلف ممكنا الا اذا اعتمدوا على حلف أخرى يضمنون بها لأنفسهم النفوذ اذا ثارت الثائرة بينهم و بين اليهود

وقد رأوا الفرصة سانحة لعقد محالفة مع ملوك غسان الذين كانوا يقودون حركة المنافسة الشديدة والنضال العنيف الموجه من النصرانيـة ضد اليهودية و بطبيعة الحال كان ملوك غسان يرغبون فى هذه المحالفة مع الاوس والخزرج بل و يسعون اليها ليتمكنوا بها من القضاء على اليهودية فى بلاد الحجاز

وعلى كل حال فقد وجدت علاقات حسنة بين الطرفين كما يؤخذ من قصيدة المدح التى قالها حسان بن ثابت فى ملوك بنى غسان والتى يقول فيها

لله در عصـابة نادمتهـم　　　يوما بجلق فى الزمان الاول
أولاد جَفْنَةَ حول قبر أبيهم　　　قبر ابن مارية الكريم المفضل
يَسقُون من وردَ البريصَ عليهم　　　بَرَدَى يصفَّق بالرحيق السلسل
يُغشون حتى ما تهر كلابهم　　　لا يسألون عن السـواد المقبل
بيض الوجوه كريمة احسابهم　　　شم الانوف من الطراز الاول[١]

ولكن هذا كله لا يثبت صحة ما روى عن أبى جبيلة اذ من الممكن جدا أن تكون العلاقات الحسنة بمثابة التعهد من جانب ملوك غسان بعـد التعرض لتجار البطون اليثربية الذين كانوا يجولون فى أنحاء سورية

ومن الممكن أيضا أن تكون هناك علاقات كهذه بين اليهود و بين بنى غسان نظرا للمصالح التجارية العظيمة التى كانت لليهود فى بلاد غسان[٢]

وهنـاك أمر آخر يزيدنا شكا فى صحة قصـة أبى جبيلة ذلك اننـا لا نجد

---

(١) الاغانى جزء ١٤ ص ٢ . ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٠
(٢) تاريخ الخميس جزء ٢ ص ١٣ ( ابو الدفاعى الخيبرى يرسل قوافله الى بلاد الشام )

بينها و بين يوم بعاث الذى جاء بعدها أية صلة أو ارتباط بل على العكس من ذلك نستنتج اعتماداً على الاخبار المفصلة التى وصلتنا عن يوم بعاث ان اليهود كانوا متمتعين بجميع حقوقهم السياسية والاجتماعية وكانت مزارعهم وآطامهم وأموالهم كاملة غير منقوصة . . . .

ويقرر المؤرخ Graetz ان بطون الاوس والخزرج لم تصارح اليهود بالعداوة والمعصية الا بعد النكبة التى حلت باليهود فى اليمن اذ لا يتصور أن يضطهد اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن و يتعصبون لدينهم و يناهضون كل من يناهضهم أو يعتدى عليهم (١)

ويؤيد قول هذا العالم ما ذكره بعض مؤرخى العرب من أن الحجاز الشمالية كانت فى شبه تبعية لليمن فى عصر وجود حمير المتهودة وان واحدا من الاسرة المالكة فى اليمن كان يشرف على شؤون الطوائف المختلفة فى شمال الحجاز (٢)

وقد بقيت البطون العربية عصوراً طويلة على موالاة ومناصرة اليهود دون أن يظهر عليهم شيء يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل الى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكايد وتحرض عليهم زعماء الاوس والخزرج ليفتكوا بهم

والظاهر ان دولة بنى غسان لم تفعل هذا الا بايعاز من الدولة الرومانية الشرقية التى أرسلت أسطولها لمساعدة الحبشة فى كفاحها ضد اليهود فى اليمن

وليس غريباً على هذه الدولة أن يحرص عمالها من ملوك غسان على أن يثيروا الفتن والدسائس ضد يهود الحجاز فسياستها هذه واضحة كل الوضوح فى الجزيرة العربية أثناء القرن الخامس والسادس ب . م . وأمامنا قصة فى كتاب السمهودى تستحق العناية لفهم السياسة الدينية عند زعماء النصارى فى الجزيرة العربية وهى ان مالك بن العجلان قد ذهب بعد قتاله للفيطون الى تبع الاصغر

---

(١) Graetz ج ٣ ص ٩١ وص ٤١٠

(٢) Perceval ج ٢ ص ٦٥٤ ينسبها للنويرى

فشكا اليه ما كان من أمر يهود يثرب فعاهده تبع ألا يقرب امرأة ولا يَمَسَّ طيبا ولا يشرب خمرا حتى يسير الى المدينة و يذل اليهود . . (١)

و يعلق العالم Wüstenfeld الذى طبع كتاب السمهودى على رواية تبع الاصغر بقوله انه كان من اقيال الحبشة المتنصرين فى اليمن وانه ذهب لمحاربة يهود الحجاز مساعدة لابى جبيلة الغسانى(٢)

وانى انقل رواية السمهودى عن تبع الاصغر بتحفظ شديد دون أن أميل الى الاعتقاد بصحتها وانما نقلتها لانها توافق أقوال المستشرقين عن الخطة السياسية التى اتبعتها الدولة الرومانية الشرقية فى الاقاليم العربية

و يعتقد العالم Wellhausen ان الكفاح بين النصرانية واليهودية فى بلاد الحجاز كان عنيفا جدا وان اغارات الدولة الفارسية على حدود البلاد الرومانية وقفت الملحمة الفاصلة لزمن ما ولولا ظهور الاسلام لاصبحت بلاد الجزيرة من الوجهة الدينية منقسمة باجمعها إلى قسمين يهودية ونصرانية (٣)

لم يصل الينا من اخبار اليهود فى بلاد الحجاز بعد ان خمدت نار الفتنة بينهم و بين بطون الاوس والخزرج الا ما يعرف بيوم بعاث

و يحدثنا صاحب الاغانى عن هذا اليوم العبوس بقوله : كانت الاوس قد أسندوا أمرهم فى يوم بعاث الى أبى قيس بن الاسلت الوائلى فقام فى حربهم وآثرها على كل أمر حتى شَحَبَ وتغير ولبث أشهرا لا يقرب امرأة . . . . . وكانت الاوس قد استعانت ببنى قريظة والنضير فى حروبهم التى كانت بينهم و بلغ ذلك الخزرج فبعثت اليهم ان الاوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب فان ظفرنا بكم فذاك

---

(٣) خلاصة الوفاء ص ٨٣

(٢) ويؤيد العالم Wellhausen أقوال Wustenféld فى مصنفه Skizzen und Vorasbeiten Heft 4 ص ٨ — ١١

(٣) Skizzen 4 ص ١٢

ما تكرهون وان ظفرتم لم نتم عن الطلب أبداً فتصيروا الى ما تكرهون ويشغلكم من شأننا ما أنتم الآن منه خالون وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين اخواننا فلما سمعوا ذلك علموا أنه الحق فأرسلوا الى الخزرج انه قد كان الذى بلغكم والتمست الاوس نصرنا وما كنا لننصرهم عليكم أبدا فقالت لهم الخزرج فان كان ذلك كذلك فابعثوا الينا برهائن تكون فى أيدينا فبعثوا اليهم أربعين غلاما منهم ففرقهم الخزرج فى دورهم فمكثوا بذلك مدة ثم ان عمرو بن النعمان البياضى قال لقومه بياضة ان عامرا أنزلكم منزل سَوْءٍ بين سَبِخَةٍ ومفازة وانه والله لا يمس رأسى غسل حتى انزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل ثم راسلهم إما ان تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها واما ان نقتل رهنكم فهموا ان يخرجوا من ديارهم فقال لهم كعب بن أسد القرظى يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الرهن والله ما هى الا ليلة يصيب فيها أحد امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن فاجتمع رأيهم على ذلك فأرسلوا الى عمرو بان لا نسلم لكم دورنا وانظروا الذى عاهدتمونا عليه فى رهننا فقوموا لنا به فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوهم وأبى عبد الله بن أبى وكان سيداً حليما وقال هذا عقوق ومأثم وبغى فلست معينا عليه ولا أحد من قومى أطاعنى وكان عنده فى الرهن سليمان بن أسد القرظى وهو جد محمد بن كعب القرظى فخلى عنه وأطلق ناس من الخزرج نفرا فلحقوا بأهليهم فناوشت الاوس الخزرج يوم قتل الرهن مناوشة ضئيلة

واجتمعت قريظة والنضير الى كعب بن أسد أخى بنى عمرو بن قريظة ثم تآمروا أن يعينوا الاوس على الخزرج فبعث الى الاوس بذلك ثم أجمعوا أن ينزل كل أهل بيت من النبيت على بيت من قريظة والنضير فنزلوا معهم فى دورهم وأرسلوا الى النبيت يأمرونهم بأتيانهم وتعاهدوا ألا يسلموهم أبداً وأن يقاتلوا معهم حتى لا يبقى منهم أحد فجاءتهم النبيت فنزلوا مع قريظة والنضير ثم أرسلوا

الى سائر الاوس فى الحرب والقيام معهم على الخروج فأجابوهم الى ذلك فاجتمع الملأ منهم واستحكم أمرهم وجدوا فى حربهم ودخلت بينهم قبائل من أهل المدينة منهم بنو ثعلبة وهم من غسان و بنو زعوراء وهم من غسان فلما سمعت بذلك الخزرج اجتمعوا ثم خرجوا وفيهم عمرو بن النعمان البياضى وعمرو بن الجموح السلمى حتى جاءوا عبد الله بن أبى وقالوا له قد كان الذى بلغك من أمر الأوس وأمر قريظة والنضير واجتماعهم على حربنا وانا نرى أن نقاتلهم فان هزمناهم لم يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد

فلما فرغوا من مقالتهم قام عبد الله بن أبى خطيبا وقال ان هذا بغى منكم على قومكم وعقوق والله ما أحب ان رَجُلا من جراد لقيناهم وقد بلغنى أنهم يقولون هؤلاء قومنا منعونا الحياة فيمنعوننا الموت والله انى أرى قوما لا ينتهون أو يهلكوا عامتكم وانى لأخاف ان قاتلوكم ان ينصروا عليكم لبغيكم عليهم فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم فاذا ولوا نخلوا عنهم فاذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا عنكم فقال له عمرو بن النعمان انتفخ والله سَحْرُك يا أبا الحارث حين بلغك حلف الاوس قريظة والنضير فقال عبد الله والله لاحضرتكم ابدا ولا احد اطاعنى ابدا ولكأنى انظر اليك قتيلا تحملك أربعة فى عباء وتابع عبد الله بن ابى رجال من الخزرج منهم عمرو بن الجموح الحرامى واجتمع كلام الخزرج على ان رأسوا عليهم عمرو بن النعمان البياضى وولوه أمر حربهم

ولبثت الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ويجمع بعضهم لبعض ويرسلون الى حلفائهم من قبائل العرب فأرسلت الخزرج الى جهينة واشجع فكان الذى ذهب الى اشجع ثابت بن قيس بن شماس فأجابوه وأقبلوا اليهم وأقبلت جهينة اليهم أيضاً وأرسلت الأوس الى مزينة وذهب حضير الكتائب الاشهلى الى أبى قيس فقام حضير فاعتمد قوسه فحرضهم وأمرهم بالجد فى حربهم

وذكر ما صنعت بهم الخزرج من اخراج النبيت واذلال من تخلف من سائر الأوس فى كلام كثير . . .

فأجابته أوس الله بالذى يحب من النصرة والمؤازرة والجد فى الحرب وأما الأوس فاجتمعت يومئذ الى حضير بموضع يقال له الحياة فأجابوا الرأى فقالت الأوس ان ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحداً ولم نقاتلهم كما كنا نقاتلهم فقال حضير يامعشر الأوس ما سميتم الأوس إلا لأنكم تؤسون الأمور الواسعة

ولما اجتمعوا بالحياة طرحوا بين أيديهم تمراً وجعلوا يأكلون وحضير الكتائب جالس وعليه بردة له قد اشتمل بها الصماء ما يأكل معهم ولا يدنو الى التمر غضباً وحنقاً فقال يا قوم اعقدوا لأبى قيس بن الاسلت فقال لهم أبو قيس لا أقبل ذلك فانى لم أرأس على قوم قط إلا هزموا وتشاءموا برياستى وجعلوا ينظرون الى حضير واعتزاله اكلهم واشتغاله بما هم فيه من أمر الحرب وقد بدت خصياه من تحت البرد فاذا رأى منهم ما يكره من الفتور والتخاذل تقلصتا غيظاً وغضباً واذا رأى منهم ما يحب من الجد والتشمير فى الحرب عادتا لحالها وأجابت الى ذلك أوس مناهُ وجدوا فى المؤازرة والمظاهرة وقدمت مزينة على الاوس فانطلق حضير وأبو عامر الراهب بن صيفى (٢) الى أبى قيس بن الاسلت فقالوا قد جاءتنا مزينة واجتمع الينا من أهل يثرب ما لاقبل للخزرج به فما الرأى ان نحن ظهرنا عليهم الانجاز أم البقية فقال أبو قيس بل البقيـة قل أبو عامر والله لوددت أن مكانهم ثعلبا ضباحا فقال أبو قيس اقتـلوهم حتى يقولوا بزا بزا كلمة كانوا يقولونها اذا غلبوا فتشاجروا فى ذلك وأقسم حضير ألا يشرب خمرا أو يظهر ويهدم مزاحما أطم عبد الله بن أبى فلبثوا شهرين يمدون و يستعدون ثم التقوا ببعاث وتخلف عن الاوس بنو حارثة بن الحارث فبعثوا الى الخزرج إنا والله

---

(١) وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وكان يقال له الراهب . ابن هشام جزء ٢ص ١٧٧

ما نريد قتالكم فبعثوا اليهم أن ابعثوا الينا برهن منكم يكونون فى أيدينا فبعثوا اليهم اثنى عشر رجلا منهم خديج و بعاث من أموال بنى قريظة فيها مزرعة يقال لها قورى فلذلك تدعى بعاث الحرب وحشد الحيان فلم يتخلف عنهم الا من لا ذكر له ولم يكونوا حشدوا قبل ذلك فى يوم التقوا فيه فلما رأت الاوس الخزرج أعظموهم وقالوا لحضير يا أبا أسيد لو حاجزت القوم و بعثت الى من تخلف من حلفائك من مزينة فطرح قوسا كانت فى يده ثم قال انظروا مزينة وقد نظر الى القوم ونظرت اليهم الموت قبل ذلك . ثم حمل وحملوا فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزم الاوس حين وجدوا مس السلاح فولوا مصعدين فى حرة قورى نحو العريض وذلك وجه طريق نجد فنزل حضير وصاحت بهم الخزرج أين الفرار الا أن نجدا سنت أى مجدب يعيرونهم فلما سمع حضير طعن بسنان رمحه فخذه ونزل وصاح واعقراه والله لا أريم حتى أقتل فان شئتم يامعشر الاوس أن تسلمونى فافعلوا فتقطعت عليه الاوس وقام على رأسه غلامان من بنى عبد الاشهل فقاتلا حتى قتلا وأقبل سهم حتى أصاب عمرو بن النعمان رأس الخزرج فقتله لا يدرى من رمى به الا ان بنى قريظة تزعم انه سهم رجل يقال له أبو لبابة فقتله فبينا عبدالله ابن أبى يتردد على بغلة له قريبا من بعات يتجسس أخبار القوم اذ طلع عليه بعمرو بن النعمان ميتا فى عباءة له يحمله أربعة الى داره فلما رآه عبد الله بن أبى قال من هذا قالوا عمرو بن النعمان قال ذق و بال العقوق وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الاوس السلاح وصاح صائح يامعشر الاوس أسجحوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب فتناهت الاوس وكفت عن سلبهم بعد إثخانفيهم وسلبتهم قريظة والنضير وجعلت الاوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها فخرج سعد بن معاذ الاشهلى حتى وقف على باب بنى سلمة وأجارهم وأموالهم جزاء لهم بيوم الرعل وكان للخزرج على الاوس يوم يقال له يوم مفلس ومضرس وكان سعد ابن معاذ حمل يومئذ جريحا الى عمرو بن الجموح فمن عليه وأجاره وأخاه يوم رعل

وهو على الاوس من القطع والحرق فكافأه سعد بمثـل ذلك فى يوم بعاث وأقسم كعب بن أسد القرظى ليذلن عبد الله بن أبى وليحلقن رأسه تحت مزاحم فناداه كعب انزل ياعدو الله أنشدك الله وما خذلت عنكم فسأل عما قال فوجده حقاً فرجع عنه واجتمعت الاوس على أن تهدم مزاحماً أطم عبـد الله بن أبى وحلف حضير ليهدمنه فكلم فيه فأمرهم أن يريشوا فيه كوة وأفلت يومئذ الزبير بن اياس بن باطا ثابت بن قيس شماس أخا بنى الحرث وهى النعمة التى كافأه بها ثابت فى الاسلام يوم بنى قريظة (١)

وخرج حضير الكتائب وأبو عامر الراهب حتى أتيا أبا قيس بن الاسلت بعد الهزيمة فقال له حضير يا أبا قيس ان رأيت ان نأتى الخزرج قصرا قصرا ودارا دارا نقتل ونهدم حتى لا يبقى منهم أحد فقال أبو قيس والله لا نفعل ذلك فغضب حضير وقال ما سميتم الاوس الا لأنكم تؤسون الامر أوسا ولو ظفرت منا الخزرج بمثلها ما أقالوناها ثم انصرف الى الاوس فأمرهم بالرجوع الى ديارهم وكان حضير جرح يومئذ جروحاً شديدة ثم مات من الجراح التى كانت به

وكان يهودى أعمى من بنى قريظة يومئـذ فى أطم من آطامهم فقال لابنة له أشرفى على الاطم فانظرى ما فعل القوم فأشرفت وقالت أسمع الصوت قد ارتفع فى أعلى قورى وأسمع قائلا يقول اضربوا يا آل الخزرج فقـال الدولة اذاً على الاوس لا خير فى البقاء ثم قال ماذا تسمعين قالت أسمع رجالا يقولون يا آل الاوس ورجالا يقولون يا آل الخزرج قال الآن حمى القتال ثم لبث ساعة ثم قال أشرفى فاسمعى فأشرفت فقالت. أسمع قوما يقولون نحن بنو صخرة أصحاب الرعل. قال تلك بنو عبد الاشهل ظفرت . . . ثم وثب فرحا نحو باب الاطم فضرب رأسه بحاق بابه وكان من حجارة فسقط فمات

---

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٩٤

وقال خفاف بن ندبة يرثى حضير الكاتب وكان نديمه وصديقه :

لو ان المنايا حدن عن ذى مهابة  لهبن حضيراً يوم أغلق داقما
أطاف به حتى اذا الليل جنه  تبوأ منه منزلا متناعما . . .

* * *

أتانى حديث فكذبته  وقيل خليلك فى المرمس
فياعين ابكى حضير الندى  حضير الكتائب والمجلس
ويوم شديد اوار الحديد  تقطع منه عرى الانفس
صليت به وعليك الحديد  ما بين سلع الى الاعرس
فأودى بنفسك يوم الوغى  وتقى ثيابك لم تدنس . . . (١)
. . . . . . . . . . . . . . . . . . اه

* * *

ولما كانت حوادث هذا اليوم قدجرت قبيل ظهور الاسلام بخمس سنوات قبل الهجرة وكان كثير من زعماء الأوس والخزرج واليهود الذين جالوا فى ميدان الوغى قد أدركوا الاسلام حتى كان لبعضهم أثر ظاهر فى حوادث المدينة بعد هجرة النبي محمد اليها فلا شك أنه يوم حقيقى وأن أغلب ما نقلنا من أخباره صحيح

وللبخارى حديث يدل على الوقع العظيم الذى كان ليوم بعاث فى نفوس أهل يثرب « قالت عائشة دخل على رسول الله وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال مِزْمَارَة الشيطان عند رسول الله(٢)

وقد ظل اليهود بعد هذا اليوم محتفظين بمكانتهم بين القبائل العربية حتى

---

(١) الاغانى جزء ١٥ ص ١٠٤ — ١٥٩
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٢٥

ان الأوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حساباً كبيراً وكانت كل منهما تجتهد في أن تميلهم اليها ليساعدوها في كفاحها ضد الأخرى

وكذلك تبين لنا من يوم بعاث أن اليهود كانوا أهل نضال وكفاح وأنهم كانوا كالأعراب في قسوتهم وغلظتهم المعروفتين عنهم في الجاهلية حتى ان بني النضير وقريظة أثخنوا في بني قينقاع ومزقوا شملهم بسبب انضمامهم الى بني الخزرج ليكونوا عوناً لهم على أبناء جلدتهم

وقد أظهر الربيع بن أبي الحقيق استياءه الشديد من تلك المعاملة الغليظة لبني قينقاع فذكر معايب بني النضير وقريظة وكان الربيع من شعراء اليهود من بني قريظة وكان أحد الرؤساء في يوم حرب بعاث وكان حليفاً للخزرج هو وقومه فقال :

سئمت وأمسيت رهن الفرا ش من جُرْم قومي ومن مَغْرَم
ومن سَفَهِ الرأي بعد النُّهَى وعيب الرشاد ولم يفهم
فلو أن قومي أطاعوا الحليـ م لم يتعدوا ولم يظلم
ولكن قومي أطاعوا الغواة حتى تعكس أهل الدم
فأودَى السفيه برأي الحليـ م وانتشر الأمر لم يبرم... (١)

وكان من نتائج يوم بعاث أن ضعف روح العدوان والحقد في نفوس البطون البريئة حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم و يتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال

وكانوا كلما همّ أحدهم أن يصب زيتاً حامياً على نار العداوة الكامنة في

(١) الاغاني جزء ٢١ ص ٦٢ واما ابن سلام الجمحي صاحب طبقات الشعراء فانه يقول ان الربيع بن ابي الحقيق من بني النضير (ص ١١٠ طبع مصر) ونحن نرجح رأي الجمحي على رأي صاحب الاغاني لما اتضح لنا من ان آل بني الحقيق من بطون بني النضير

القلوب ليزيد فى ضرامهـا و يعظم من أوارها سعى كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين لـكف يده حتى لا تسل السيوف من اغمادها

وعلى العموم فان يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب قاطبة وأدخل فيها الميل الى الاتحاد حتى أرادت فيما يقال أن تملك عليها ملكا من بنى الخزرج كما يحدثنا ابن هشام « ان قوم عبد الله بن أبى قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ثم جاء رسول الله الى المدينة وانصرف القوم عن عبد الله ورأى أن الرسول قد استلبه ملكا فلما أن رأى قومه قد أبوا الا الاسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن وكان لا يختلف عليه فى شرفه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين . . . »(١)

فكأن قلوب بنى يثرب على اختلاف قبائلها وكثرة نزعاتها قد سئمت العداوة وكرهت حالة الجفاء والخشونة وشعرت بالحاجة الى من يخرجهم منها ويوجه عنايتهم الى ما هو أكثر خيراً وأعظم نفعا

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٧٧

# الباب الرابع

# أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية

## فى بلاد الحجاز قبيل ظهور الاسلام

مسايرة النمو الادبى والاجتماعى للتقلبات السياسية — بسط نفوذ الدين اليهودى فى الحجاز — الديانة الاسرائيلية لا تميل الى ارغام الامم على اعتناقها — العوامل التى حالت دون انتشار اليهودية فى الحجاز — قصص ابن هشام فى مبلغ تأثير اليهود فى عقلية العرب — طعن بعض المستشرقين فى صحة وجود صلة قرابة قديمة بين العرب واليهود — رد هذا الطعن بالادلة التاريخية وابحاث بعض المستشرقين — عادة الختان عند العرب واليهود وهل اخذها العرب من اليهود ؟ — التعبير ( ملة ابراهيم حنيفا ) وعادة الختان — الحنيفية فى بلاد الحجاز — الجدل بين المستشرقين فى هذا الموضوع — زيد بن عمرو بن نفيل والحنيفية — النسأة عند العرب واليهود — الاصطلاحات الوثنية عند العرب وعلاقتها باللغة العبرية — ضعف تأثير الديانة المسيحية فى قلوب أهل الحجاز — حالة اليهود الاجتماعية والدينية بين العرب فى الجاهلية — الحالة عند قبائل الحجاز قبيل ظهور الاسلام — يوم الفجار ونتائجه — النهضة الفكرية فى بلاد الحجاز قبيل ظهور الاسلام — قس بن ساعدة — امية بن ابى الصلت — استعداد القلوب العربية لقبول ديانة سماوية جديدة

— — • — —

اذا أنعمنا النظر فى التاريخ العام نجد النمو الادبى والتغير الفكرى فى أمة من الأمم يمتد ويسمو الى الدرجات الرفيعة مع امتداد النمو السياسى وازدياد الرقى الى ذرى المجد بقوة السيف والبطش كما نراه يسقط شيئاً فشيئاً ويتدهور تدريجياً كلما تدهورت القوة المادية فى تلك الأمة وضعف سلطانها

وتكاد تكون هذه الظاهرة عامة وشاملة لكل الامم والشعوب ولكننا لا نجدها حين نبحث عنها فى يهود الجزيرة العربية اذ بعد ان انتصر الحبشيون على ملوك

حمير المتهودة و بعد ان أظهر أبو جبيلة الأوس والخزرج على يهود يثرب — اذا فرضنا صحة هذه الرواية — بقى سلطانهم الفكرى بوجه عام ونفوذهم الدينى بوجه خاص قويين سليمين لم تنل منهما قوة أعدائهم الا قليلا

ولا شك أنه كان فى مقدرة اليهودية أن تزيد فى بسط نفوذها الدينى على العرب حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام الى ارغام الامم على اعتناق دينها وان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود (١)

ولسنا نعرف فى تاريخ اليهود أنهم أرغموا بقوة السيف أمة من الامم على اعتناق اليهودية اذا استثنينا حادثة واحدة ارغم فيها الملك اليهودى يوحنان هوركانوس طوائف بنى أدوم على اعتناق اليهودية صاغرين بعد ان استولى على بلادهم عنوة ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن اليهود كانوا يعتبرون بنى أدوم إخوة لهم فى الجنسية اذ لم تكن هناك بينهم فروق ظاهرة فى العقلية والتقاليد فلعلهم أرادوا بارغامهم اياهم على اعتناق اليهودية أن يزيلوا الفارق الدينى أيضاً... (٢)

وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية فى الحجاز : فاليهودية كما نفهمها هى خلاصة القانون التلمودى بعقائده وتقاليده وطقوسه وهذا القانون الذى نشأ فى بيئة معينة وفى مدة قرون معينة والذى استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التى طرأت على اليهود مع التغير الاجتماعى والرقى الروحانى الذى طبع العقلية اليهودية بطابع جديد لم يكن يعرف فى العصور الاسرائيلية القديمة وقد نجم عن ذلك ان الذين أرادوا

---

(١) راجع التلمود كتاب קידושין ע وكتاب יבמות מז

(٢) Klausmer جـ ٢ ص ٧٢ وكتاب Simhoni جـ ٢ ص ١٠٣

أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودي وعقائده لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية ولا شك ان هذا كان من أهم الاسباب التي أدت الى ظهور النصرانية فان طوائف اليونان والسريان المجاورة لفلسطين قد تأثرت بالدين الاسرائيلي وارتاحت لتعاليم التوراة فاعتنقت العقائد الجوهرية وآمنت بالمبادئ الأساسية ورفضت ما لا يناسب روحها القومي ولا يتفق مع تقاليدها القديمة

كذلك وجدت هذه النفسية في الجزيرة العربية اذ تأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية وأخذوا يخضعون لبعض الاصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر فلم ترض منهم اليهودية ذلك ولم تقربهم الى الله بل لم تفرق بينهم وبين بقية عبدة الأصنام لأنهم لم يقبلوا التمسك بالسبت ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود

وهكذا صمم اليهود الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها الا اذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها دون أن يفضل بعضها على بعض

على أن المسيحيين والمسلمين نحوا هذا النحو مع كل من أراد أن يعتنق المسيحية أو الاسلام اذ لم يرض المسيحيون من شخص أن يعتنق بعض ما جاء في الانجيل وينكر مالم يوافق هواه وكذلك رفض المسلمون أن يدخلوا في حظيرة الاسلام من آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر

وهناك أمر آخر عاق انتشار اليهودية بين العرب ذلك ان التوراة والتلمود كلفا الانسان بتكاليف صعبة وربطاه بتقاليد كثيرة لم يألفها فلم يستطع العربي الذي لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة وعسر على نفسه أن تقبل التقليد باغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهي المطبوعة على حب الاستقلال والحرية

ويقول الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : وهناك أمر آخر له خطر . وهو

ان اليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار من بين شعوب الارض . ولا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزات لشعب آخر ليس منهم . لهذا لا يقرون بأن الله يختار نبيا غير اسرائيلى . ( راجع آية — ١ — وما بعدها من الاصحاح ١٤ تثنية ) — اه

كنا قد ذكرنا فى الفصول الماضية ان بطونا عربية كثيرة سكنت بجوار اليهود فى يثرب وخيبر ووادى القرى ولكن الاختلاط والتأثير بين العرب واليهود لم يقف عند هذا الحد بل انه انتشر فى أكثر أقاليم العرب عموما والحجاز خصوصا . كانت مستعمرات اليهود واقعة على طريق القوافل الآتية من الحجاز واليمن قاصدة الى سورية والعراق وكان تجار العرب يأتون الى الاسواق اليهودية فى شمال الحجاز ليبتاعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم فى الاسواق التى كان العرب يقيمونها فى جهات شتى فينتج عن التعاون الاقتصادى والاختلاط الاجتماعى تبادل فى الآراء وجدال فى الديانات

كان اليهود يفتخرون بدينهم ويقصون على الاعراب ما يعلمون من عظمة الله وجبروته وعن خلق الدنيا والجنة والنار والقيامة والبعث والحساب والميزان وكانوا يذكرون معايب الوثنيين ويعزقون أعراض الأصنام جهرا كما يحدثنا ابن هشام اذ يقول « كان سلمة من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بن عبد الأشهل قال فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بنى الاشهل وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا على بردة لى مضطجع فيها بفناء أهلى فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون ان بعثا كائن بعد الموت فقالوا له ويحك يافلان أو ترى ان هذا كائن ان الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم قال نعم والذى يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدار يحمونه ثم

يدخلونه اياه فيظنونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً فقالوا له ويحك يافلان فما آية ذلك قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده الى مكةواليمن.... (١)

***

يوجد عند بعض الباحثين ميل الى اعتقاد أن اليهود تعمدوا نشر قصص التوراة والتلمود بين العرب لأسباب سياسية ودينية وأنها فى حقيقة الأمردسيسة لفقها اليهود للعرب تزلفاً اليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والألفة بينهم » ويقول أحد هؤلاء العلماء : « . . . ان هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة اذ لوحظ عليهم كثيراً أنهم متى رأوا المصلحة فى التودد الى قوم قالوا لهم أنتم اخواننا ونحن وأنتم صنوان . . . وظلوا منذ ذلك العهد الى ظهور الاسلام وهم يبذلون جهدهم فى اشراب العرب عقيدة أنهم جميعاً ذرية أب واحد حتى نجحت فيهم هذه الأكذوبة التى كان العرب أجهل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق

ولما ظهر النبي محمد رأى المصلحة فى اقرارها فأقرها وقال للعرب انما هو يدعوهم الى ملة ابراهيم . . . (٢)

والمتأمل فى هذه النظرية التى يشم منها رائحة الطعن فى ديانة سماوية يرى أنها مجردة عن الصحة وليس فيها من الحقيقة التاريخية عين ولا أثر ويؤكد فسادها ما يأتى :

( ١ ) ان اليهود كانوا يقصون على العرب الاقاصيص المذكورة فى التوراة والتلمود كما هى دون أن يزيدوا عليها شيئاً من عند أنفسهم

( ٢ ) اذا وجد الميل عند بعض المستشرقين الى انكار وجود الآباء الأقدمين لبنى اسرائيل من ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب فانهم لايستطيعون أن

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٣
(٢) مقالة فى الاسلام من كتب المبشرين ص ١٨

ينكروا وجود قبائل بنى اسرائيل وقبائل بنى اسماعيل لان التوراة نصت على وجودها فى طورسينا والحجاز بما ذكرته من الحوادث التى وقعت بين بطون اسماعيلية وأدومية واسرائيلية ولا شك أن هذا كاف لاثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طور سينا والحجاز

وقد عثرت على نص فى التوراة يؤيد نظريتى فى هذا الصدد ولكنى مضطر الى أن أترجم هذا النص ترجمة عربية جديدة لان تراجم التوراة العربية والافرنجية قد أخطأت فى تفسيرها الحقيق وهذا هو النص العبرى : וישכנו ( בני־ שמעאל ) מחוילה עד שור אשר ע־ פני מצרים באכה אשורה ער פני כל אחיו נפר[١]

ومعناه : ونزلت ( بطون بنى اسماعيل ) مع نشأتها[٢] بين اخوتها واستوطنت البلاد من الحولة الى طريق القوافل بين مصر والعراق

( ٣ ) قرر علماء الافرنج جميعاً أن علاقة بطون بنى اسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز وطورسينا أقرب منها الى قبائل بنى اسرائيل الشمالية كل هذا يوضح انه لم تكن ليهود الحجاز ضرورة لاختلاق الأباطيل[٣]

وأما الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار فيقول : لو أن اليهود كانوا فى تلك الأزمان المنصرمة يستغلون القرابة يخترعونها لتكون رباطاً بينهم وبين قوم يرجون منهم نفعاً أو يخشون منهم ضرراً أو حيفاً لكان الأجدر بتلك القرابة الرومان والفرس أى الأمم التى تعاقب حكمها عليهم فى الأزمنة المختلفة . ولكننا لم نرهم شيئاً من ذلك ودعوى انهم يفعلون ذلك مع الأمم كلما رجوا نفعاً أو خافوا حيفاً دعوى لا نظن ان من يدعيها يقدر أن يقيم أدنى برهان عليها

---

(١) التكوين فصل ٢٥ / ١٨

(٢) راجع فى نهاية هذا الباب عن النشأة ص ٨١

(٣) ص ٢٧ — ٣٤ Israel's settlement in Canaan

ص ١ — ٥٦ Relation between Arabs and Israelites

وأعجب ما يعجب له السامع لأولئك الطاعنين فى اليهود بهذه الفرية أن يكون اليهود يخترعون تلك الاسطورة تزلفاً لقريش أو العدنانيين فى حين أنه ليس ثمة من صلات بين اليهود وقريش تجعل الأولين يرهبون سطوة الآخرين ويرجون خيرهم لبعد الشقة بين مواطن الفريقين ولم يعهد أحد ولم يرو راو فى القديم ولا فى الحديث أن اليهود استعانوا قريشاً فى حرب من حروبهم أو غزوة من غزواتهم معتمدين على صلة القرابة واتحاد الدم أو على صلة أخرى من الصلات التى تكون بين الشعوب المتقاربة أو المتباعدة

ولو أن اليهود يتجرون بأُحْمَة القرابة النسبية ويستغلونها للمصلحة يجلبونها أو المضرة يدفعونها لكان الأليق بهم والأجدر أن يخترعوا تلك القرابة بينهم وبين الأوس والخزرج الذين يتاخمونهم ويشاركونهم فى المواطن والمرافق ويرتبطون معهم بربط المعاملة والجوار . فكيف يتركون هؤلاء المجاورين لهم ويخترعون أسطورة يلفقونها تربطهم بقوم بعيدى الدار لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً

بقى أمر آخر له أهمية فى هذا الموضوع : وهو أن أسفار التوراة ترجمت الى اليونانيـة فى عهد بطليموس فيلادلفوس . وهو ثانى ملك من البطالسة فى مصر ويوافق حكمه أوائل القرن الثالث قبل المسيح وفى صلب تلك الترجمة كل النصوص التى تنص على ارتباط العرب الاسماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود وذلك قبـل رحيل يهود يثرب الى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون . فهل كان اليهود يعلمون ما ستحدثه الأيام وانهم بعد أربعة قرون أو أكثر سيصيرون الى بلاد العرب ويتخذونها دار مقام لهم . ثم أنهم سوف يحتاجون الى ربط أنفسهم برابطة النسب مع قوم من العرب لا يخالطونهم فى الدار وليس بينهم وبينهم حلف أو جوار فأعدوا ذلك قبـل ترجمة التوراة الى اليونانيـة وكذبوا تلك الأكذوبة سلفاً وقبـل الاحتياج اليها بقرون متطاولة . اذا قال أولئك الطاعنون على اليهود : نعم ، فليس لدينا ما نجيبهم به سوى قول القائل :

من كان يخلق ما يقول لخيلتي فيه قليلة .... اهـ —

ومهما يكن من الأمر فان اتصال العرب باليهود قد أدى الى تغيير جوهرى فى عقلية المضر والبادية بالحجاز وظهرت هناك نظم جديدة طرأت على شؤونهم الاجتماعية وتسربت الاصطلاحات من العبرية الى العربية

و إنى أشير هنا الى بعض التغييرات التى يعتقد العلماء انها ظهرت فى الحجاز بعد وصول اليهود اليها فى طورهم الثانى ...

لا شك فى أن عادة الختان لم تسر من اليهود الى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور غابرة ويستدل العالم. ( Wellhausen ) [1] بوجود قبائل متوحشة حتى فى أفريقيا كانت تألف هذه العادة

ولست أنكر صحة هذا الرأى لأن التوراة توضح لنا أن بنى إسرائيل قد جاءوا بالختان من موطنهم الاصلى فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت ذائعة عند قبائل أخرى مجاورة لبنى إسرائيل فى الصحراء

غير أن هناك اعتباراً آخر لم يمعن العلماء نظرهم فى فحصه ربما يرشدنا الى اكتشاف تأثير اليهود على العرب فى عادة الختان

كان الاصطلاح « ملة ابراهيم حنيفا »[2] شائعاً عند العرب قبل ظهور الاسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكرى العرب لم تكن عبادة الأوثان تعجبهم وكانوا يرون أن التقرب الى الله بالحجارة أمر لا قيمة له

لا أريد أن أعود الى اقوال مفسرى القرآن فى هذه العبارة ولكن أجتهد فى أن أصل الى تفسير جديد لهذا الاصطلاح

---

(١) ص ١٤٥ Skizzen & Vorarbeiten H III

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢١

يعرف العضو التناسلي بعد ختانه في العبرية باسم مِلَة (מילה) كما انله اسما خاصاً قبل ختانه وهو غرلة

وبما أن الختان من أصول الدين الاسرائيلي [١] فقد عبر الناموس الديني عن كل من اختتن انه دخل في ذمة وعهد ابراهيم الخليل להכניסו בבריתו של אברהם אבינו

ومن هنا أطلق اليهود على كل من اختتن التعبير « ملة ابراهيم » وهـذا اللفظ يقوله العاذر للطفل عند ما يعذره والحاضرون يؤمنون (עונים אמן)

ولـكن من حيث أن الختان وحده لا يؤدي الى الايمان باليهودية لأن هناك شروطاً أخرى لا بد من توفرها كاعلان الدخول في الديانة التوحيدية الاسرائيلية واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه فقـد أطلق اليهود على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية اسم حنيف חנף [٢] غير الصالح أي الختان الغير الوافي بالشروط اليهودية وقد جاء في لسان العرب وكان في الجاهلية يقال من اختتن وحج البيت حنيف .... القراء الحنيف من سنَّتُه الختان ... الجوهري الحنيف المسلم وقد سمي المستقيم بذلك كما سمي الغراب أعور وتحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية ويقال اختتن

وفيه أيضاً : أبو عمرو الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير

ومن ذلك كله يمكننا أن نقول إن الحنيف في الأصل هو المائل الى الشر كما هو عنـد اليهود في لغتهم والعرب قد يطلقون اللفظ على الشيء وضـده فأطلقوا الحنيف على المستقيم على ملة ابراهيم استعمالاً للفظ في أحد معنييه [٣] فيحتمل أن اليهود أطلقوا على العرب التي شاعت عندها عادة الختان هذا اللفظ دون أن

---

(١) راجع التوراة سفر التكوين فصل ١٧ آية ١١ والتلمود كتاب נדרים ص ٣١

(٢) لهذه الـكلمة بعض المعاني بالعبرية مثل : تملق أو اقترف اثماً أو تذلل وتداهن

(٣) لسان العرب جزء ١٠ ص ٤٠٣

توضح لهم معناه ثم شاع استعماله عند العرب حتى فى معناه الاصلى[١]

لو اتضحت صحة هذا الرأى لكان فيه برهان قاطع على ان عادة الختان قد سرت الى العرب من اليهود فى الدور الثانى

يجتهد العالم ( Wellhausen ) فى أن يبرهن ان الحنيفية كانت مذهباً نصرانياً ذائع الصيت[٢] فى بلاد العرب ولكن Leszynsky يعارضه[٣] ويقول ان الحنيفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهباً معيناً بل كان هناك أشخاص من مفكرى العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ودخل بعضهم فى اليهودية ودخل بعض آخر فى النصرانية وبقى جماعة منهم غير متمسكين بدين من الأديان واستدل على ذلك بقول القرآن ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً فانه صريح فى أن الحنيفية لم تكن واحداً منهما

وقد جاء لبعض الافراد من الحنيفيين ذكر فى سيرة ابن هشام أكتفى بنقل ما يقوله عن واحد منهم « وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التى تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم وبادأ قومه بعيب ماهم عليه . . . وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً يسند ظهره الى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين ابراهيم غيرى ثم يقول اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك ولكنى لا أعلمه . . . »[٤]

---

(١) دوزى ص ١٩٠
(٢) ص ١٩٢ Skizzen H IV
(٣) ص ٤٣ Die Juden zu Medina
(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧

كذلك قرر بعض العلماء من الافرنج أن أمر النسىء نشأ من تأثير اليهود على العرب[1]

يحدثنا ابن هشام بأن « النسأة هم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر[2]

وللعرب فى موضوع النسأة ومعناها كلام طويل عريض[3] وأما الافرنج فينكرون وجود تفسير لكلمة نسأة بالعربية ويميلون الى القول بما كان معروفاً عند اليهود من ان الناسئ (נשיא) أى الرئيس الدينى عند اليهود كان يؤخر ويقدم الشهور ويعين مواعيد الأعياد والصيام ويعلن النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة[4]

وأضيف الى ذلك أن الناسىء (נשיא) هو الاسم الشائع لرئيس القبائل عند بنى اسرائيل منذ أزمنة غابرة[5]

ويحدثنا ابن هشام أن أول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ثم قام بعده على ذلك ابنه (ابن حذيفة) ثم قام بعد عباد قلع بن عباد ثم قام بعد قلع أمية ابن قلع ثم قام بعد أمية عوف بن أمية وكان آخرهم وعليه قام الاسلام وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فحرم الاشهر الحرم الأربعة رجباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فاذا

(١) ص ١٦٨ — ١٧٤ Die Israeliten zu Mekka

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣

(٣) أديان العرب تأليف محمد نعمان الجارم ص ٤٣ — ٤٦

(٤) ראש השנה פ ע

(٥) سفر الخروج فصل ٣٤ آية ٣١ وسفر عدد فصل ٧ آية ٣

أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر لحرموه ليوافقوا عدة الأربعة الاشهر الحرم فاذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال انى قد أحللت لكم أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل . . . (١)

هذه أقوال ابن هشام عن النسأة وهى توضح قبل كل شىء أن وظيفة النسأة أدخلت على العرب فى عصر غير بعيد من ظهور الاسلام ثم ان وجود هذه الوظيفة فى بنى كنانة يرشدنا الى سؤال : هل كان لبطن بنى كنانة الذى اصدر النسأة علاقة ببطون بنى كنانة المتهودة التى سكنت جنوبى مكة ثم لماذا وجدت المقاومة للنصرانية فى اليمن وللنجاشى الذى قضى على ذى نواس من جهة النسأة وحدهم دون الزعماء الوثنيين ؟ ألم يكن من المحتمل أن لهؤلاء النسأة علاقة باليهودية ؟ . . .

ولكنى أكتفى بما أشرت اليك من العلاقة بين كنانة والنسأة وكنانة واليهود ومقاومة النسأة للنجاشى بسبب عطفهم على القضية اليهودية فى الجزيرة دون أن أجزم فيها برأى . . . . .

ويؤيد أبو معشر البلخى(٢) وأبو الريحانى البيرونى(٣) والمقريزى(٤) رأينا فى النسأة ويقولون ان العرب تعلموا عمل الكبسية من اليهود قبل الهجرة بقريب من مائتى سنة وأخذوا يعملون بالكبس ما يشاكل فعل اليهود من الحاق فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس وقد أطلق العرب على عمل الكبسية بالنسىء أى التأخير غير انهم خالفوا اليهود فى بعض أعمالهم لأن اليهود كانوا يكبسون تسع عشرة سنة قمرية بسبعة أشهر قمرية حتى تصير تسع عشرة شمسية والعرب تكبس

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٤٥
(٢) كتاب الالوف
(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية
(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

أربعاً وعشرين سنة قمرية باثنى عشر شهراً قمرياً . . . .

كذلك نظن أن لوظيفة الصوفة علاقة باليهود أو بلغتهم العبرية على أقل تقدير يحدثنا ابن هشام « كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة وتجيز لهم اذا انفردوا من مِنَى فاذا كان يوم النفر أتوا لرمى الجمار ورجل من صوفة يرمى للناس ما يرمون حتى يرمى فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له قم فارم حتى نرمى معك فيقول لا والله حتى تميل الشمس فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له ويلك قم فارم فيأبى عليهم حتى اذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه . . . وكان آخرهم الذى قام عليه الاسلام كرب بن صفوان . . . (١)

وأما صوفة بالعبرية فان معناها الحارس وهذا التفسير يلائم ما نقلناه من كتاب السيرة عن الصوفة ( צפה ) بصر أو الشخص الذى يبصر فى الشؤون الدينية لأنه أصدر الأمر حين مسابقة الافاضة وكان أول من رمى الجمار بالحجارة أو الحصى فى وادى منى

ومنى هذا من الأصنام المشهورة عند بنى اسرائيل فى عصور جاهليتها لاننا نعلم من آيات نبوات أشعيا أن منى ( מני ) كان الهاً للخمر « وأما الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسى فرتبوا الى جد (٢) مائدة وملأوا لمنى خمراً ممزوجاً (٣)

وكذلك يرى العالم دوزى ان استعمال العرب لاسماء الأسبوع تأثيراً يهودياً (٤) اذ لا يمكن تصور استعمال لفظ السبت ليوم من أيام الاسبوع دون أن يأتى من

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١١٣

(٢) من الاصنام الكنعانية גד اله الجد والحظ وقد أخطأت تراجم التوراة العربية فى تفسير هذه الآية : راجع ترجمة التوراة لجمعية المبشرين البريطانيين ص ١٠٧٠

(٣) أشعيا فصل ٦٥ آية ١١

(٤) Die Israeliten zu Mekka ص ١٨٠

تأثير اليهود كذلك عرف يوم الجمعة عند أهل مكة بلفظ عروبة وهو لفظ شائع عند اليهود يطلقونه على كل يوم يقع قبل السبت وقبل الأعياد :

ערב שבת, ערב חג הפסח (١)

ومهما يكن من مبلغ تأثير اليهود فى العرب فانى أميل الى الاحتراس والتحفظ لئلا نصل الى المبالغة والمجازفة فى الحقائق التاريخية

على أن هناك مقياساً آخر يجب ألا ينسى وهو ما قلته فيما مضى من ان الصلة الدموية فى العنصر والتقارب فى اللغة والاخلاق هو أساس التشابه بين العقلية واتجاه الأفكار والآداب بين العنصرين

ولا يمكننا فى كل الأحوال أن نستنتج نتائج تتعلق بالنفوذ كما يحكم بعض الذين لا يتعمقون فى البحث فيقولون مثلاً ان مهنة التجارة وما يتصل بها من دهاء وذكاء ونشاط قد جاءت الى أهل مكة من يهود بلاد الحجاز اذ ترجع ملكة التجارة عند بطون أم القرى قبل كل شيء الى مركزها الجغرافى و وقوعها فى وسط بلاد العرب وعدم وجود مرافق أخرى للتكسب والارتزاق

ثم ان التشابه العظيم بين اليهود وأهل مكة من وجهة الأخلاق والتقاليد والاصطلاحات الدينية كان سبباً فى ضلال بعض المستشرقين حتى خيل اليهم أن أهل مكة واليهود قُدُّوا من أديم واحد ونبتوا من نَبْعَة واحدة فأخذوا يذهبون فى المبالغات والظنون مذاهب عجيبة ومنهم دوزى (٢) الذى يجتهد فى أن يبرهن على أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بنى شمعون وان تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست الا وراثة اسرائيلية قديمة ولكننا نعتقد أنه اذا ظهر التشابه بين أهل مكة واليهود أكثر منه بين اليهود والبطون الحجازية الأخرى فان ذلك

---

(١) راجع التلمود كتاب אבות פ ה وكتاب פסחים קט

(٢) ص ٤٠ — ١٨٥ Die Israeliten

يرجع الى أن مكة كانت أرق وأرفع من بقية البلاد فى شمال الجزيرة ومن أجل هذا كان حرم مكة موضع الاحترام والتبجيل من جميع العرب فى الجاهلية .

ومع انى أستنكر استنكاراً شديداً ما استنتجه دوزى فى أمر حرم مكة وعلاقته ببطون بنى شمعون فان هناك أمراً يستوقف الأنظار وهو انه كثيراً ما يحدثنا ابن هشام عن حرم مكة و بنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة فى تقديسه الخ [1] . . . بشكل يشبه ما يقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس بأورشليم وعلاقة الآباء الأقدمين به وتقديس الملائكة له حتى خيل الينا أثناء قراءتنا كتاب السيرة لابن هشام فى هذه الموضوعات اننا نقرأ صحف التلمود القصصية . . .

تجتهد طائفة من أنصار Wellhausen فى أن تبرهن على أن تأثير النصرانية فى النفوس العربية الحجازية كان أقوى من تأثير اليهودية مستندين الى أن عدد نصارى العرب كان أكثر من عدد اليهود [2] ولكن هذا غير صحيح لان الكثرة النصرانية العربية انما كانت على أطراف الجزيرة من جهة الشمال أما فى داخل الحجاز حيث المراكز التجارية والدينية والفكرية فقد كانت الاكثرية فى جانب اليهود بل لم يكن هناك من نصارى العرب الا عدد قليل جداً

وفضلاً عن ذلك فقد كانت الصلة قوية جداً بين مكة و يثرب التى كانت تكاد تعتبر موطناً خالصاً لليهود

---

(١) ١٠٦ / ١٣٤ /١٨١ ص ابن هشام جزء ١ وللبخارى أحاديث فى هذا الموضوع منها « وقال الرسول يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لاحد قبلى ولم يحل لى الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطة الا من عرفها ولا يختلى خلاه . . . جزء ٢ ص ٣٠١

(٢) ص ١٩٧ Skizzen Heft III

ويكفينا فى تقويض مزاعم هؤلاء المستشرقين اننا نجد أكثر من ثلث القرآن يتكلم عن اليهود ويناقشهم ويهتم بأقوالهم والرد عليها فطوراً يمدحهم وتارة يقرعهم ويؤنبهم تأنيباً شديداً فان ذلك يدل على ما كان لليهود من المكانة العظيمة فى نفوس العرب وعلى الصلة المتينة التى كانت تربطهم بهم

لا ننكر على النصرانيـة تأثيرها فى العرب بوجه عام ولكنه على كل حال تأثير ضئيل بالنسبة للنفوذ اليهودى الذى كان واضحا جلياً فى كل ناحية من نواحى الحياة الروحية والمـادية . . .

وهناك مسألة أخرى تلفت نظر الباحث فى كتب بعض المؤرخين من الافرنج وهى ما يزعمونه من ان اليهود كانوا محتقرين فى الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسـلام (١) ونحن نميـل الى الاعتقاد بأن ذلك غير صحيح لان العربى فى الجاهلية لم يكن يفهم البغض والضغينة الدينية كما فهمها المتأخرون ولقد يؤيد الاستاذ النجار رأينا بقوله : لو كان اليهود محتقرين لما اهتم رسول الله بمحالفتهم ولما أهمه أمرهم يوم الأحزاب حين مالوا عنه ولمـا قام لحربهم بعد يوم الأحزاب على ممالأتهم عليه واتيانهم بالأحزاب لحربه . . . اه

وكان عرب الجاهلية يلقبون اليهود أثناء القتال والنضال بألقاب قبيحة ذميمة وكذلك كان اليهود يفعلون ولكن ذلك لم يؤد الى احتقار اليهود أو التعريض بالقومية اليهودية ودينها وما كان للعربى الذى طبع على حب الحرية والغيرة على الـكرامة أن يسلبها من غيره وكل القرائن تدل على أن العرب على اختلاف بطونهم وأديانهم كانوا يتبادلون الاحترام دون أن يعرفوا فرقاً بينهم من وجهة الحقوق السياسـية والاجتماعية والأدبية فقد نجد كعب بن الأشرف يرثى قتلى قريش كما نجد عباس ابن مرداس يذكر جلاء بنى النضير ويبكيهم فى قصيدة

وكذلك يمدح أبو سفيان زعيما من زعماء اليهود ويقول :

---

(١) ص ١٩٧ Skizzen Heft III

To: www.al-mostafa.com

سقانی فروّانی کمیتاً مدامة    علی ظمأ منی سلام بن مشکم
تخیرته أهل المدینة واحداً    سواهم فلم أغبن ولم أتندم
فلما تقضی اللیل قلت ولم أکن    لأفرحه أبشر بعرف ومغنم
وان أبا غنم یجود وداره    بیثرب مأوی کل أبیض خضرم[١]

ولا یمکن أن یعول علی ما یؤخذ من القصص والروایات التی جاءت بعد فتور الأحوال بین الیهود والأنصار أو یستدل به علی مکانة الیهود فی نفوس العرب زمن الجاهلیة

کان الیهود موضع الاحترام عند الأشراف والنقباء من قریش وکان رسول الاسلام ینظر الیهم هذه النظرة من التبجیل الی زمن طویل بعد مبعثه کما سنوضح ذلك فیما بعد

وکان العرب یجهلون الدیانة الیهودیة و یقولون للیهود « لکم علم لیس لنا »[٢]

وقد یحدثنا ابن هشام أن رجلا من یهود الشام یقال له ابن الهیبان قدم علینا قبیل الاسلام بسنین فحل بین أظهرنا لا والله ما رأینا رجلا قط لا یصلی الخمس أفضل منه فأقام عندنا فکنا اذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج یا ابن الهیبان فاستسق لنا فیقول لا والله حتی تقدموا بین یدی مخرجکم صدقة فنقول له کم فیقول صاعاً من تمر أو مُدّین من شعیر فنخرجها ثم یخرج بنا الی ظاهر حرتنا فیستقی لنا والله ما یبرح من مجلسه حتی تمر السحابة ونسقی قد فعل ذلك غیر مرة ولا مرتین ولا ثلاثاً . . .[٣]

والذی یمکننا ان نستنتجه من هذه القصة الخرافیة ان مؤرخی العرب کانوا یعتقدون ان الدیانة الیهودیة واقوامها کانوا موضع الاحترام فی الجاهلیة

---

(١) الاغانی جزء ٦ ص ٩٧
(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢٠١
(٣) ابن هشام جزء ٠ ص ٢٠٤

وكانت من نساء العرب من تنذر اذا ولدت وعاش ولدها ان تهوده لان اليهود كانوا فى نظرهم أهل علم وكتاب(١)

***

قبيل ظهور الاسلام حدثت حروب عظيمة بين بطون يثرب عرفت بيوم بعاث دامت سنين طويلة كذلك حدث فى جهة مكة حرب ضروس عرفت بايام الفجار التحمت فيها المعارك بين بطون قريش وكنانة فى أربعة أدوار يقال لها الفجارات الاربعة

أما الفجار الاول فكان عمر النبى محمد فيه عشر سنين وسببه ان بدر ابن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم انه اعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأسقطها وأزالها فاقتتلوا . وسبب الفجار الثانى ان امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها أن تكشف وجهها فضحك الناس فنادت المرأة يا آل عامر فنادوا بالسلاح ونادى الشاب يا بنى كنانة فاقتتلوا . . . وسبب الفجار الثالث انه كان لرجل من بنى عامر دين على رجل كنانى فماطله فجرت بينهما مخاصمة فاقتتل الحيان(٢)

وكانت آخرها فجار البراض وقد بلغ رسول الله أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة حين هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة و بين قيس عيلان وكان الذى هاجها ان عروة الرحال من بنى هوازن اجاز لطيمة (وهى الجمال التى تحمل المسك) للنعمان بن المنذر فقال له البراض بطلب غفلته حتى اذا

---

(١) ديانات العرب فى الجاهلية ص ٢٠١

(٢) من تعليقات الشيخ محمود سيد الطهطاوى على كتاب السيرة لابن هشام جزء ١ ص ١٧٥

كان بتيمن ذى طلال بالعالية وثب عليه فقتله فى الشهر الحرام فلذلك سمى الفجار فارتحل العرب عن عكاظ وهوازن لا تشعر أن البراض قد قتل ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم فأمسكت عنهم هوازن ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم وشهد رسول الله بعض أيامهم أخرجه أعمامه معهم وقال الرسول كنت أنبل على أعمامى أى أرد عليهم نبل عدوهم اذا رموهم بها . . . (١)

وأما الذى نقلناه عن أيام الفجار فيحتمل أن يكون من العامل المباشرة والقريبة لظهور الهياج بين قبائل قريش وكنانة وهوازن .

ويلوح لى أن النضال الشديد الذى ظهر بين قبائل الحجاز فى شماله وجنوبه يدل على انه وجد فى القرن السادس ب . م حركة سياسية قوية بين زعماء الحجاز كان كل واحد منهم يطمع أن يستأثر بالحكم ليتمكن من أن يشيد أركان مملكة جديدة

ولكن التنافس أضعف الجميع وقلم أظافرهم وزاد فى المصاعب والمتاعب التى كانت تحول بين كل واحد منهم وبين ما يريد حتى ظهر هناك شخص توافرت فيه شروط لم تتوافر فى غيره فألف بين القلوب

ومن ذلك الحين أخذت جداول الجزيرة العربية تتجه اتجاهاً واحداً ويقترب بعضها من بعض الى أن امتزجت فى نهر واحد أخذ يتدفق من قلب الجزيرة ويفيض بقوة حتى غمر وجه الأرض . . .

وقبيل ظهور الاسلام وجدت فى الديار العربية نهضة فكرية عظيمة كان الاضطراب من علاماتها وقبيل الاسلام أيضاً أصبحت القلوب صالحة لقبول

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١٧٥

دعوة دينية جديدة وصارت الديانة الوثنية موضع السخرية جهراً عند بعض الطبقات من المفكرين

يحدثنا صاحب الأغانى أن قس بن ساعدة الأيادى كان يتكئ عند خطبته على سيف أو عصا ويقول « مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا والله ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه وأدرككم أوانه فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه[1]

ومع ان النصرانية واليهودية قد أوجدتا الشك فى صحة الديانة الوثنية فانهما لم تفلحا فى ادخال تغيير جوهرى فى النظم الدينية وظلت الوثنية واليهودية والنصرانية فى نزاع عنيف دون أن تتغلب واحدة على الاخرى

واننا نعتقد أنه لو ظهر هناك يهودى ذو عاطفة ربانية قوية ودعا العرب الى الدخول فى دين جديد يشبه اليهودية فى جوهره ويبقى عربياً فى تقاليده وروحه لكانت دعوته قد وجدت آذاناً مصغية وقلوباً واعية

كذلك لو كان واحد من المفكرين الحنيفيين أو غيرهم دعا لتوحيد الاله مع ابقاء النظم العربية الاجتماعية التليدة لكانت دعوته قد صادفت أرضاً خصبة

يقول صاحب الأغانى ان أمية بن أبى الصلت « كان قد نظر فى الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفة وحرم الخمر وشك فى الأوثان وكان محققاً والتمس الدين وطمع فى النبوة لانه قرأ فى الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون ذلك . . .[2]

ولكن أمية وغيره لم يظهروا بمظهر الأنبياء ولم يجترءوا على أن يفادوا بحياتهم

---

(١) الاغانى جزء ١٤ ص ٤٠

(٢) الاغانى جزء ٣ ص ١٧٩

فى سبيل الدعوة الدينية و بقيت أفكار أهل الجزيرة العربية مضطربة اضطراباً عنيفاً بين اليهودية والنصرانية والوثنية الى أن ظهر رجل رفع علم النبوة وصار غرة ناصعة فى جبين الدهر ومجداً باقياً ما بقى الزمان وأرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديدا . . .

وكان اسمه محمد بن عبد الله من آل قريش من مدينة مكة

# الباب الخامس

# مكة ويثرب ازاء الحركة الاسلامية

مبعث الرسول — كيف يكون البحث فى سيرة الانبياء ؟ طريقــة البحث عند رجال العلم ورجال الدين — الظروف التى كانت تحيط بالنبى محمد قبــل هجرته الى يثرب — هل سكن اليهود فى مدينة مكة قبيل الهجرة — رأى الاب المستشرق لامنس فى هذا الموضوع تقسيم العــالم Noeldke القرآن الكريم الى أربعة أقسام — الآيات القرآنيــة الموافقة لمبادئ التوراة الجوهرية — ذكر الآيات القرآنيــة الاولى لموسى وسردها بعض أنباء بنى اسرائيل فى مصر — رواية احتكام رسول الله وبنى قريش الى يهود يثرب — ارتياب بعض المستشرقين فى صحة هذه القصة الخطيرة — رأى المؤلف فى هذا الموضوع — اضطهاد أهل مكة للمسلمين — نزوح فئة من المسلمين الى الحبشة — لماذا لم يلتجئ المسلمون الى اقليم من أقاليم العرب أو الى يهود يثرب ؟ سياســة الحبشة فى بلاد العرب — عرض الرسول نفسه على العرب فى المواسم — رحلة الرسول الى الطائف — معاناة الرسول للشدائد والصعاب فى سبيل نشر دعوته — التقاء الرسول فى العقبة برهط من الخزرج — الفرق بين عقلية القبائل العربيــة وبطون يثرب — آثار تعاليم اليهودية فيهم — الديانة اليهودية من الاسباب القوية لظهور الاســلام — اعتقاد اليهود بظهور مسيح — تأثير هذه العقيدة فى نفوس قبائل يثرب — حاجة بطون يثرب الى محالفات سرية — قصة الحيسرانس بن رافع وقدومه الى مكة قبل يوم بعاث — بيعة النساء بالعقبة — بيعة العقبة الكبرى — مطامع بنى الخزرج من هذه البيعة — الغاية التى كان النبى يرمى اليهــا — نتائج بيعة العقبة الكبرى فى التاريخ الاسلامى — موقف قريش واليهود ازاء البيعة الكبرى بالعقبة

---

يوجه العلماء أثناء بحثهم عن حياة العظماء من الجنس البشرى عناية عظيمة الى البيئة التى نشأوا فيهــا والوسط الذى أحاط بهم ولا يفتأون يبحثون باهتمام شديد عن الظروف الداخلية والخارجية التى وجدوا فيهــا لوثوقهم بأن لها الفضل الاكبر فى تكوين عقليتهم وتنمية عبقريتهم حتى اذا ما استوفوا ابحاثهم الدقيقة

العميقة يأخذون فى استنتاج النتائج التى يطمئنون اليها وترتاح لها ضمائرهم

غير أن هذه الوجهة فى البحث لا يرتضيها كثيرا رجال الدين أثناء البحث فى تاريخ الانبياء لاسيما من لا يوافقون منهم على فكرة التوفيق بين العلم والدين لانهم يعتبرون للشؤون الدينيـة مقياساً آخر وينزلون رجال الوحى منزلة أخرى وينظرون اليهم بعين غير التى ينظرون بها الى ابطال التاريخ البشرى

على أن هذا الاختلاف بين مقياس محققى العلم والدين لا يوجد الا فى تعريف النظرية دون الوجهة العملية فى جوهر البحث لان رجال الدين لا يخالفون الرأى العلمى القائل بأن الوحى انما نزل على الانبياء فى ظروف داخلية وخارجيـة دعت اليه الأحوال وبواعث نفسية توافرت فى الانبيـاء دون غيرهم ممن عاشوا فى بيئاتهم وعصورهم ولمقلبـات وعوارض نفسية كانت تعرض لهم فى ظروف خاصة من سرور وشجون واضطراب

وقبل أن نشرع فى توضيح الظروف التى كانت تحيط بالنبى محمد أثناء نزول الآيات القرآنية الى عهد هجرته الى يثرب فاننا نود أن نبحث فى مسألة وقع فيها نزاع بين المستشرقين وهى هل اتصل رسول الاسلام بافراد وجماعات من اليهود قبل هجرته الى المدينة أم لا ؟

لا شك أن أفرادا من اليهود كانوا يأتون الى مكة لاشـغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون الى خيبر ليجلبوا منها حلى آل أبى الحقيق التى كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلى بها حين زفافهن وغير ذلك[١]

كذلك كان كعب بن الاشرف قد جاء الى مكة ليرثى قتلى بدر كما جاءت وفود من يهود النضير الى مكة لتحزب الاحزاب ليوم الخندق[٢] وذلك بعد الهجرة

---

(١) الواقدى ص ٢٧٧

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٦٨

وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ويحدثنا الواقدى أنه وجد فى مكة عبد من اليهود كان اسمه عبد الدار بن جبر دخل فى ذمة الرسول بعد أن سمع منه سورة يوسف فكان لها وقع شديد فى نفسه ولما بلغ الخبر مشركى مكة أوسعوه ضربا فاعطاه الرسول بعد فتحه لمكة مقداراً من المال فتزوج بامرأة شريفة من بنات مكة (١)

وقد أفرغ المستشرق Lamens جهده فى أن يبرهن على أن عدداً من اليهود كان يسكن مدينة مكة قبيل ظهور الاسلام (٢) ولكن نظرياته لا يطمئن اليها الباحث ولو صح ما ادعاه هذا العالم لكان لليهود حى خاص بهم فى مكة ولكان لهم معبد خاص يقيمون فيه صلواتهم و يدرسون كتبهم وليس فى جميع المصادر التاريخية القديمة ما يشير أقل إشارة الى وجود شيء من ذلك

غير أنه من الممكن أن يكون بعض الأفراد سكنوا فى مدينة مكة كما سكن بعضهم فى مدينة الطائف (٣) وفى عدة مدن أخرى من الحجاز ولكنهم كانوا قليلين .

يحتمل أن النبي قد اتصل باليهود منذ حداثته لاسيما بعدان اشتغل بالتجارة عند السيدة خديجة اذ كانت الاعمال التجارية فى مدينة مكة مرتبطة ارتباطا شديدا بيهود يثرب وخيبر

ويرتاب بعض المستشرقين فى صحة خروج النبي الى الشام والتقائه بالراهب بحيرا (٤) ويعتقدون أن الرسول لم يتجاوز حدود الحجاز طول حياته (٥)

---

(١) الواقدى ص ٣٤٩

(٢) راجع الرسالة Les Juives a la Meque

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٦٣ طبع مصر

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ١٦٩

(٥) ص ٤١ Die Juden zu Medina

وقد قسم العالم Noeldke القرآن الكريم الى أربعة أقسام يشتمل القسم الاول منه على الآيات التى أنزلت قبل الهجرة الى يثرب ويتضح أن الآيات فى هذا الدور كانت موافقة لمبادئ التوراة الجوهرية وكانت ترمى الى التأثير فى النفوس العربية التى كانت تنظر باحترام عظيم الى تعاليم التوراة ومبادئها « ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى »(١)

وينبئ التنزيل أهل مكة بأن محمداً للعرب إنما هو مثل موسى لبنى إسرائيل وينذرهم ان هم لم يؤمنوا بما جاء به النبى محمد ان يصيبهم ما أصاب قوم فرعون فيقول « إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً »(٢)

كما يقول « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى الى وما أنا إلا نذير مبين »(٣)

نفس هذا التعريف يوجد فى كتب العهد القديم عن بعض الأنبياء الاسرائيليين(٤) ويخاطب الوحى العرب بما يقنعهم بأن النبى ذكر فى التوراة وأن بنى إسرائيل يعلمونه « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وانه لفى زبر الأولين أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى إسرائيل(٥)

ويشير التنزيل الى أن هناك وفاقاً تاماً بين القرآن والتوراة « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن

(١) سورة الاعلى آية ١٩
(٢) سورة المزمل آية ١٥
(٣) سورة الاحقاف آية ٨
(٤) راجع ميخا فصل ٢ آية ٦ هزقياه فصل ٢١ آية ٧ ( מטיף )
(٥) سورة الشعراء آية ١٩٥

واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . . . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين »(١)

من هذا يستنتج المستشرقون أن الافكار فى مدينة مكة كانت على علم بدين اليهود وتعاليمه وأن النبي الجديد قد ظهر بمظهر الأنبياء الاسرائيليين كى يثبت صحة رسالته و يؤيد دعوته التى يعلم قريش لها نظيراً فى اليهودية

و يعجب المستشرقون من أنه لم يأت فى هذا الدور أقل ذكر للمسيح أو لتعاليم الانجيل وأن أول إشارة فى القرآن للسيد المسيح لم تكن إلا فى السنة العاشرة بعد مبعث النبي محمد(٢)

وقد يستنتج العالم ( Lesynsky ) من هذا انه كان هناك بون شاسع بين قلوب رجال عرب الحجاز فى الجاهلية و بين مبادئ النصرانية وتعاليمها بينما كانت السور القرآنيـة فى الدور الأول لا تخلو واحدة من الاشارة الى ما فى التوراة والتلميح الى مواضيعها وذكر شيء من تاريخ بنى إسرائيل(٣)

مع أن من المؤكد الثابت أن أفراداً من أحرار النصارى وعبيدهم قد كانوا فى مكة ساكنين ومختلطين بأهلها ولكن لم يثبت أن أهل مكة قد عرفوا النصرانية وتعاليمها ومبادئها

كان التأثر بتعاليم اليهودية شديداً جداً الى حد أن قبلة الرسول فى صلاته كانت الى جهة أورشليم كما هى عند اليهود وكان الرسول اذا صلى صلى بين الركنين اليمانى والاسود وجعل الكعبة بينه و بين الشام(٤)

ورواية احتكام رسول الله و بنى قريش الى يهود يثرب تدل على ما كان

---

(١) الاحقاف ٩ — ٢١

(٢) سورة مريم

(٣) Die Juden ص ٤١

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٢١

لليهود فى نفوس أهل مكة من المكانة الكبيرة

ويحدثنا ابن هشام أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبى معيط الى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فانهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهما إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالت لهما أحبار اليهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّلٌ فأروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فانه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هى فان أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبى وإن لم يفعل فهو رجل مُتَقَوِّل فاصنعوا فى الرجل ما بدا لكم فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيْط حتى قدما مكة وأخبرا بنى قريش ما سمعا من أحبار اليهود فجاءوا الى رسول الله فقالوا يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول وقد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ما هى فقال لهم رسول الله أخبركم بما سألتم عنه غداً ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله اليه فى ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه عنه وحتى حزن رسول الله ومكث عنه الوحى وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه وعلى انه لم يكل الأمر لمشيئة الله وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتنة والرجل

الطواف والروح [١]

وينفي بعض المستشرقين صحة هـذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن اليه [٢] والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً فى نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذى القرنين

وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية وهى أن فى التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف [٣] ومن هـذه القصة أخذ أحبار اليهود الأسئلة التى وجهوها للرسول بواسطة وفد بنى قريش

وتؤيد هذه القصة ما ذهبنا اليـه من انه لم يكن بمكة أحد من اليهود إذ لو وجد منهم فى مكة ما أوفد بنو قريش وفدهم الى المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن شأن النبى واذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم

انتهى بعدذلك دور المناقشات بين الرسول وأهل مكةو بدأ النفور والاضطهاد ويحدثنا ابن هشام أن أهل مكة تآمروا على من أسلم واتبع الرسول فوثبت كل قبيلة على من فيهـا من المسلمين فجعلوا يحبسونهم و يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش [٤]

ولما رأى الرسول ما يصيب أصحابه وانه لا يقدر على أن يمنعهم ممـا هم فيه من البلاء أشار عليهم بالنزوح الى بلاد الحبشة وكان لهم ملك لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب الرسول الى الحبشة مخافة الفتنة وفرارا الى الله بدينهم [٥]

ولماذا لم يلتجئ هؤلاء المهاجرون الى إقليم من أقاليم العرب أو الى يهود

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧٤
(٢) Die Juden ص ٣٦
(٣) راجع التلمود كتاب בבא בתרא עד
(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٨٨
(٥) ابن هشام جزء ١ ص ٢٩٢

يثرب ؟ بعض المستشرقين من المتعصبين للنصرانية يقولون بأن النبي إنما أشار على المسلمين بالنزوح الى الحبشة لأنه كان يفضل وجود المسلمين فى بيئة مؤمنة من النصارى على وجودها بين المشركين ولكننا نميل الى الاعتقاد بأن عاملا سياسياً هو الذى كان السبب فى نزوح المهاجرين الى الحبشة

كانت الأمة الحبشية تطمع منذ أجيال قديمة فى فتح الأقاليم العربية وكان ملوك الحبشة يراقبون أحوال الجزيرة مراقبة شديدة ويتحينون الفرص لتنفيذ مطامعهم الاستعمارية ، من أجل ذلك بالغ النجاشى فى الاحتفاء باللاجئين من مكة أملاً فى أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل فى شؤون مكة الداخلية

ولم يلجأ المهاجرون الى قوم من العرب فى الجزيرة مخافة من هيئة قريش وعدوانها وكانت بلاد العرب مرتبطة برجال قريش ارتباطاً تجارياً ودينياً وكان لبعضها محالفات وعقود سياسية مع رجال قريش

ولهذا السبب نفسه منع النبي الهجرة الى يثرب إذ كان بين بطون اليهود وآل قريش علاقات تجارية متينة لم تكن تسمح لليهود أو للأوس والخزرج بالاحتفاء بأعداء قريش وفوق ذلك فقد كانت الحرب دائرة بين بطون يثرب فى ذلك الحين ( يوم بعاث )

اذاً فقد كانت بلاد الحبشة أقرب إقليم هادئ الى مكة وكانت هى البلاد التى تمكن الهجرة اليها مع امن المهاجرين على حياتهم وأموالهم

وبعد هجرة المسلمين الى الحبشة أخذ الرسول يعرض نفسه على العرب فى المواسم ويدعوهم الى الله ويخبرهم انه نبى مرسل

وقد رحل الى الطائف وعرض نفسه على بطونها فلم يقبلوا منه وخذلوه وأنكروه فقال له أحدهم هو يمرطن ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك وقال الآخر أما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث والله لا أكلمك أبداً لئن كنت

رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك بالكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يرجمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه الى حائط فلما اطمأن روعه قال اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى الى من تكلنى الى عبد يتهجمنى أم الى عدو ملكته أمرى (١)

وهذه القصة المؤثرة تدل على الشدة التى كان يعانيها الرسول أثناء عرضه دعوته على بطون الطائف ثم تظهر مقدرته الفائقة التى لا توجد الا عند كبار الأخيار من رجال التاريخ البشرى حين لم يكن يبالى بعدوان البطون عليه ولا بقوارص الكلم التى كان السفهاء يوجهونها اليه بل مضى فى سبيله يدعوالعرب الى الله بكل ما أمكنه من حيلة ووسيلة ولكن نجاحه كان بطيئاً جداً فى ذلك الحين لان تعاليمه كانت تقوم على ترك عبادة الأصنام وهدم العقيدة الراسخة فى نفوس العرب « وعلى أن تسلخ هبل واللات والعزى من أعناقها » (٢) وكان ذلك فوق ما تهضمه عقولها وتحتمله نفوسها ثم رجع الرسول الى مكة

و بقى النبى يعانى الشدائد والصعاب فى سبيل نشر دعوته وأعداؤه يزدادون فى اساءتهم اليه حتى التقى بأفراد من عرب يثرب فوجدت دعوته لديهم آذاناً مصغية وقلوباً واعية فبينما الرسول فى العقبة اذ لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقال لهم من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال من موالى اليهود قالوا نعم قال أفلا تجلسون أكلمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن وكان مما صنع الله لهم به فى الاسلام أن يهودا كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦

قد غزوهم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شيء قال لهم اليهود إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض ياقوم تعلموا والله انه للنبي الذى وعدكم به اليهود فلا تسبقنكم اليه فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا له انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ثم انصرفوا عن الرسول راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا (١)

. ويتضح من هذا أنه كان هناك بون شاسع بين عقلية القبائل القاطنة بالطائف وغيرها من سائر القبائل التى عرض عليها الرسول دعوته وبين عقلية هذا النفر من رجال يثرب اذ كانت الأولى عقليتها جامدة جافة ليس فيها أى استعداد للتصور الروحى وكانت الثانية عقليتها مرنة قابلة للتطور مستعدة للترقى فلم تكد تسمع دعوة الرسول حتى قبلتها واعتقدتها ووجدت دعوة الرسول فى هذه النفوس أرضاً خصبة صالحة لنمو الدين الجديد فيها وازدهاره

ولا شك أن هذا أثر من آثار التعاليم اليهودية ونتيجة من نتائج الاختلاط الشديد بيهود يثرب

وهكذا بعد تلك الشدائد والرزايا التى نزلت بالنبى بسبب عرضه دينه على العرب فى تمسكهم الشديد بالقديم وهجومهم على كل من يتعرض لدين آبائهم وجد أمامه بطوناً يثربية دخلت فى دينه بلا مقاومة وأخذ أفرادها ينظرون اليه نظر التعظيم والتقديس لما ألقى عليهم الرسول

ومن هنا يمكن أن يقال إن اليهود كانوا من أهم الاسباب التى ساعدت على ظهور الاسلام وان يكن ذاك بطريقة غير مباشرة

---

(١) جزء ٢ ص ٣٠ ابن هشام

وهناك ملاحظة أخذناها من هذه القصة — قصة النفر من الخزرج — ولم نجد من تنبه اليها من المؤرخين وهى ان ما رسخ فى نفوس اليهود من اعتقاد مجىء مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء كان له الأثر الكبير فى انتشار الاسلام كما كان سبباً فى ظهور النصرانية فى فلسطين عند طائفة خاصة من اليهود وكما كان سبباً لظهور عدة أشخاص من اليهود فى القرون القديمة والوسطى بمظهر الانبياء والمرسلين حيث عرضوا على اخوانهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لانفسهم دعوة المسيح المنتظر

وقد ملأت هذه القصة صحفاً كثيرة من صحف الأدب الاسرائيلى القديم والحديث وكثيراً ما كانت سبباً فى نزول بلايا ورزايا كثيرة باليهود فى أدوار مختلفة ولا تزال هذه العقيدة الى اليوم راسخة فى نفوس الطبقات المتدينة من اليهود واذا قام شخص وادعى أنه المسيح المنتظر الذى يحنون اليه منذ أزمان طويلة أنكروا ادعاءه وسفهوا قوله ورفضوا الاذعان لما يدعوهم اليه . وكأن الأمة الاسرائيلية كانت ترمى لهذه الفكرة الى غاية معنوية لا يريدون تحقيقها بوجه من الوجوه

ولكنها لعبت دورها بين العوامل التى أدت الى انتشار الاسلام اذ كان العرب يسمعون من اليهود أثناء أوقات الشدائد والازمات أن المسيح المنتظر سيأتى ليتغلب على اعداء الشعب المختار فلما عرض النبى رسالته على أفراد من الخزرج تنبهوا الى أقوال اليهود فاقبلوا يعتنقون الاسلام ويؤمنون بدعوة الرسول

وهكذا أدت تلك الحادثة بين الرسول وبين النفر من الخزرج الى هذه النتيجة العظيمة ذات الاثر البعيد فى التاريخ البشرى

لكن هناك عوامل أخرى ذات أهمية كبيرة وهى تلك المقاصد السياسية التى كانت ترمى اليها بطون العرب بارتباطها بروابط العروة الوثقى مع النبى

والذى ينعم النظر فى تاريخ بطون يثرب يرى أن الطوائف الضعيفـة فى المدينة كانت تعمل سرا على ايجاد محالفات مع قبائل عربية قريبة و بعيدة فمن المحتمل اذن أن تكون الاوس والخزرج قد حالفت بطون بنى غسـان لمحاربة اليهود فى عصر أبى جبيلة كذلك يحتمل أن تكون تلك البطون قد عرضت المحالفة على قريش ولـكن لم يصل شىء عنها الينـا أو أن قريشاً قد استنكرتها لمصلحتها التجارية

ونحن نعلم أن بطون الاوس قد أرسلت قبل يوم بعاث وفدا الى مكة وكانت فى ذلك الحين عاجزة عن محاربة بطون الخزرج وكان رائد وفد الاوس يرمى الى تحريض قريش على الخزرج ولكن قريشاً رفضت الدخول فى أمور كان يشتم منها رائحة الدماء

ويحدثنا ابن هشام عن هـذا الوفد « ان أبا الحيسر انس بن رافع قدم مكة ومعه فتية من بنى عبد الاشهل فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج وقد سمع بهم رسول الله فأتاهم فجلس اليهم فقال لهم هل لـكم فى خير مما جئتم له فقالوا له وما ذاك قال أنا رسول الله بعثنى الى العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الـكتاب فقال اياس بن معاذ وهو غلام حدث هذا والله خير مما جئتم له فلطمه أبو الحيسر اياس بن معاذ على وجهه وقال دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا فصمت اياس ثم انصرفوا الى المدينة وكانت وقعة بعاث بين الاوس والخزرج (١)

وهذه القصة ذات شأن عظيم فى فهم تاريخ بطون يثرب وانى لأميل الى الاعتقاد بأنه لو لم تكن لها صلة بالرسول لاهملها ابن هشام كما أهمل مؤرخو العرب القدماء ذكر محالفات أخرى مع قريش جاءت الاوس أو الخزرج لتعرضها عليها

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٩

أما بعد يوم بعاث فقد ظهر عند بطون الخزرج المغلوبة على أمرها أن تقتفى أثر الاوس فى أيام عجزها وكانت بطون الخزرج تحن الى الثأر من الاوس واليهود معاً لانهم قد أثخنوا فيهم إثخانا وبالغوا فى قتلهم فلما ذهب النفر من الخزرج الى مكة لتأدية فروض الحج وكان قلبهم يفيض أسى وحزنا فلم يكد يعرض الرسول دعوته عليهم حتى قبلوا منه وآمنوا بدعوته وبايعوه لانهم أرادوا أن يكون لهم منه مسيح ينقذهم مما يعانون من بؤس وشقاء

وفى العام المقبل فى موسم الحج حدثت بيعة العقبة المشهورة ببيعة النساء (١) وفى الموسم الثالث تمت البيعة الكبرى بالعقبة وقد اشترك فيها اثنا عشر نقيبا من نقباء الأس والخزرج وأخبارها مطولة فى سيرة ابن هشام (٢)

وأما الغرض الذى كان يرمى اليه الرسول فكان غرضاً دينياً قبل كل شىء ثم الى إيجاد قوة لمحاربة قريش التى تسىء اليه والى كل مؤمن بينما كانت الغاية التى يرمى اليها بنو الخزرج سياسية قبل كل شىء وهى إيجاد قوة لمحاربة عدوهم الذى بالغ فى قتلهم و إذلالهم وهو بطون اليهود فى يثرب

وقد قال الزعيم الخزرجى ابو الهيثم للرسول « ان بيننا و بين الرجال حبالا وانا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا فتبسم الرسول وقال بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم (٢)

واذا سلمنا بصحة هذا الحديث فاننا نقرر أن الغاية التى كان بنو الخزرج يرمون اليها من مشروعات بيعة العقبة الكبرى ظاهرة جلية اذ هى مقاتلة يهود يثرب وهدم كيانهم

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٨ — ٤٢

أما النبي فقد وعدهم ما وعد لكسب ثقتهم التامة وأما الغرض الذى كان يسمو اليه فى الواقع فقد كان غير غرضهم تماماً اذ لم يكن بعد قد نشأ بينه و بين اليهود شيء من العداء ولم يكن يضمر لهم أقل شر بل كان يرمى الى توحيد بطون يثرب جميعاً وجعلهم أمة واحدة ليتمكن من أن يحارب بهم اعداءه ! . .

وكذلك يحتمل أنه وعد النفر من الخزرج الذين التقى بهم الرسول فى البيعة الأولى بأن يقاتل أعداءهم من الاوس واليهود جميعاً ولكن فى بيعة النساء قد اشترك بعض النقباء من الاوس ومع أنه لم يشترك أحد من زعماء اليهود فى البيعة الكبرى فان النبي كان يعتقد رغم هذا ان سيدخل اليهود فى ذمته حين يظهر فى يثرب

والذى مهد السبيل وهيأ القلوب للبيعة الكبرى هو مُصْعَب بن عمير الذى ذهب مع النقباء من بطون يثرب بعد بيعة النساء وقرأ مع الانصار القرآن وألف بين قلوبهم وكان الاوس والخزرج يكره بعضهم بعضاً فكره بعضهم أن يؤمه البعض الآخر (١)

ولكن مصعب بن عمير استطاع أن يحالف بين النقباء الاثنى عشر فى يثرب وأن يأتى بهم متآلفين متضامنين فى غاية واحدة الى البيعة الكبرى

وهنا يعترضنا سؤال وهو لماذا لم يشترك من اليهود فى هذه البيعة أحد ألم يكن مصعب بن عمير يسعى لادخالهم فى الحلف أو أن اليهود لم يلبوا دعوته أو أنه خشى من دخول اليهود فى هذه البيعة أن تضعف عزيمة زعماء الخزرج ؟ . .

هذه أسئلة يجب ألا تغيب عن بالنا فى أثناء بحثنا فى تاريخ البيعة الكبرى بالعقبة

وهنا يعنّ لنا سؤال وهو كيف كان موقف قريش واليهود ازاء اتجاه الرسول

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٤

الى بطون يثرب العربية التى انتهت بالبيعة الكبرى بالعقبة ؟

لقد رجعنا الى ما كتبه العرب عن حركات قريش أثناء البيعات فى مواسم الحج من ناحية بطون الاوس والخزرج فوجدناهم اقتصروا على بسط أعمال زعماء قريش بعد البيعة الكبرى وفى أثناء العمل لها فهل يمكننا أن نصدق أن قريشاً وقفت موقف الحياد فى تلك السنوات الثلاث التى استمرت فيها المحادثات والمفاوضات بين انصار الرسول و بين بطون يثرب ونحن نعلم أن زعماء قريش قد أعلنوا عداوتهم للديانة الجديدة منذ نشأت ولم يألوا جهداً فى قتلها وهى فى المهد ولم يتركوا وسيلة لايقاد الفتنة ضد المسلمين الا لجأوا اليها حتى لقد أرسلوا الوفود الى الحبشة يستعينون بها على اخراج المؤمنين من ديارهم ، أيمكن أن نسلم بأن قريشاً أغضت أو تغاضت عن تلك الحوادث الهامة التى كانت تجرى فى مكة فى حين كان القوم يؤدون شعائرهم الدينية وكانت تلك الحركات العدائيـة مصوبة الى العقائد القديمة من ناحية عنصر عربى له قوة ونفوذ فى شمال الحجاز بأجمعه ؟

ازاء هذا لا يمكننا أن نسلم بذلك الحياد المظنون بل نرجح أن قريشاً بذلت كل ما كان فى وسعها من القوة والنفوذ لتحبط مشروعات الرسول ولترجع زعماء الاوس والخزرج الى موقفهم الاول ولكنها خابت فى هذا المسعى لأن بطون يثرب لم تستمع لهم اذ كانت تأثرت بنفوذ النبى ورأت أن مصالحها السياسية والاقتصادية تقضى بالانضمام اليه

وانه ليعنينا أكثر من هذا أن نعرف موقف يهود يثرب ازاء هذه البيعة الكبرى بالعقبة فان المراجع العربية لم تشر الى حركاتهم ونياتهم ازاء هذه البيعة الكبرى كأن الدعوة الاسلاميـة لم تصل اليهم وكأنهم لم يقفوا على شىء من أعمال البطون اليثربية العربية

ونحن نرجح أن اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة لأنها متصلة بمصالحهم

السياسية والتجارية والاجتماعية خصوصا اذا لاحظنا اتجاه الدعوة الاسلامية صوب المدينة وميل زعماء الخزرج الى الاتصال بالرسول ونحن نعلم ما كان بينهم و بين اليهود من الحقد مما جعل زعماء بنى النضير وقريظة يراقبون حركاتهم جميعا ثم نعلم أن الاسلام لم ينتشر خفية فى يثرب وكيف وقد كان مصعب بن عمير يدعو الناس الى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون وكان يتنقل من بطن الى بطن ومن حى الى حى مدة طويلة ثم إننا نعلم أن عددا من تجار اليهود كان يشترك فى مواسم الحج فمن البعيد اذن أن يجهل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الاخبار

نحن لا نشك فى أن اليهود لم يكونوا متحدين فى ميولهم السياسية والاجتماعية فقد كانوا فى شقاق دائم ولم تظهر بينهم الألفة الا فى أيام البؤس والشدة كما اتحد بنو النضير و بنو قريظة فى يوم بعاث ضد عدوهم من بنى الخزرج وفى يوم بعاث كان بنو قينقاع يحاربون الى جانب صفوف الخزرج ضد أبناء جلدتهم وقد بالغ اليهود فى قتلهم وعداوة بنى قينقاع لبقية اليهود قديمة فيما يرى بعض المستشرقين اذ أكرههم اليهود على الخروج من مزارعهم والاكتفاء بحيهم الذى كان يحميه بنو الخزرج

وأمامنا عنصر ثالث من اليهود هو البطون المتهودة الصغيرة وكان من بطون العرب فى يثرب أسر تهودت ولم تخرج من ديارها بل بقيت محتفظة بمنازلها بين قومها ونحن لا نجد لهذه البطون المتهودة ذكراً فى النضال العنيف ضد الاسلام

فهل نظن انهم لم يتدخلوا قط فى شؤون الحرب أو انهم قاتلوا فى صفوف أبناء دينهم ولم يذكرهم المؤرخون لقلتهم وقد يصح أن نفترض انهم مع تهودهم آثروا النزعة القومية على العاطفة الدينية فلم يشتركوا فى حرب اليهود للمسلمين ؟

كانت العلاقات بين اليهود و بين قريش فى غاية الصفاء لذلك نفرض انه اذا لم يفلح زعماء قريش فى استمالة زعماء الخزرج فانهم لا بد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على احباط أعمال المسلمين فى المدينة وكذلك كان فان الذى يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف زعيم بنى النضير و بين الرسول يرى أن ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الاسلامية منذ وصلت أرض يثرب والعداء الذى استفحل أمره بين الجهتين يؤيد ما نقول

ولكن اذا افترضنا اتفاق بعض زعماء اليهود مع قريش للتحرش بالاسلام فاننا نعلم من جهة أخرى أن مخيريق اليهودى أحد زعماء وأغنياء بنى النضير كان من أوفى الناس للرسول وأكثرهم ميلا اليه منذ هجرته وكذلك أظهر عبد الله بن سلام ولاء للنبى قبل أن تنشأ الأزمة بين النبى وبين يهود المدينة

كل ذلك يؤيد ما نميل اليه من ان النزعات السياسية عند زعماء البطون كانت مختلفة كل الاختلاف وهذا كله فرض قد يساعدنا فى البحث عن العلاقات بين المسلمين و بين قريش واليهود

و يقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار وقد ذكر المؤرخون وأصحاب السير أن أهل يثرب لما بايعوا النبى البيعة الكبرى علمت قريش فى تلك الليلة بتلك البيعة مع أنها كانت سرية لم يعلم بها وثنيو أهل يثرب فمن الذى أفضى الى قريش بذلك الأمر ؟

لا جائز أن يكون أحد المبايعين أخبرهم بما كان . والوثنيون لا علم لهم بشىء والذى نفترضه أحد أمرين :

الأول أن تكون قريش تنبهت الى الأمر وراقبت محمداً من حيث لا يدرى حتى اذا اجتمع بأنصاره بلغهم عينهم بما كان ففطنوا للأمر

الثانى أن أحد اليهود من تجار الموسم رأى جيرانه فى الدار على حال غير

معتادة ففطن للأمر وأسر الى قريش بما رأى

وقد ذكر المؤرخون أن قريشاً عاتبت أهل يثرب على ما كان من أمر بيعة الرسول فسكت من كان منهم مؤمناً ودخل فى بيعة النبى وتكلم الوثنيون فأنكروا أن يكون حصل منهم شىء تكرهه قريش وحلفوا لهم على ذلك فرجع القرشيون حين سمعوا ذلك . . . اه

ومهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة فانهـا من الحوادث ذات النتائج الخطيرة فى التاريخ الاسلامى

وانى أعتقد انه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهـم من تلك السـنة لأن قيمتها لم تكن أقل شأناً من قيمة هجرة الرسول الى يثرب . . . ومع ذلك فلم يفتهم شىء كثير فان الهجرة حصلت فى السنة التالية لها عن قرب

# الباب السادس

## هجرة الرسول الى يثرب

### واجلاؤه بنى قينقاع والنضير عنها

آمال اليهود التى كانوا ينتظرون تحقيقها بعد قدوم النبى الى يثرب — معاهدة الرسول مع يهود يثرب — نص الصحيفة — آراء المستشرقين فيها — قيمة هذه الصحيفة — نظام الحكم فى منطقة يثرب قبل الهجرة — رغبة الرسول فى التأليف بين قلوب المسلمين واليهود — كيف نشأ سوء التفاهم بين الرسول واليهود — بعض أسباب جوهرية لسوء التفاهم أهملها المؤرخون — المجادلة الدينية سبب مباشر للخصومة — اشتداد الازمة السياسية بين الرسول واليهود — فشل الطائفة المعتدلة من اليهود فى سعيها لارجاع المياه الى مجاريها — دور المنافقين فى هذا النزاع — يوم بدر — لماذا لم يشترك اليهود فى القتال يوم بدر ؟ — دعوة الرسول بنى قينقاع الى الاسلام — الاسباب التى أدت الى نشوء العداوة بين المسلمين وبنى قينقاع قبل غيرهم من اليهود — رد بنى قينقاع على دعوة الرسول — جلاؤهم عن المدينة — آيات قرآنية نزلت فى جلاء بنى قينقاع عن المدينة — يوم أحد — امتناع بنى النضير عن الاشتراك فى هذه الموقعة — مخيريق اليهودى صديق الرسول — قتل كعب بن الاشرف — نقطة خلاف بين ابن هشام واليعقوبى — أمر الرسول باجلاء بنى النضير عن المدينة — أصرار بنى النضير على المقاومة بتشجيع زعيم المنافقين — نزول بنى النضير على حكم الرسول — مغانم بنى النضير — شعر العرب فى يوم بنى النضير

لا شك أن اليهود كانوا يرصدون الاحوال التى طرأت على يثرب بعد البيعة الكبرى بالعقبة ويراقبون تطور الحوادث باهتمام شديد ولم يكن يدور فى خلدهم ان سيحدث ما يوجه الحوادث فى تيار مضاد لمصالحهم ومضاد لكيانهم ولو أنهم تبينوا فى مظاهر الخزرج ما يدل على شيء من ذلك لأعلنوا الحرب جهراً منضمين الى حلفائهم من البطون اليثربية أو منضمين مع قريش

ويلوح لى أن اليهود كانوا ينظرون بفارغ الصبر قدوم النبى الى يثرب وكانوا يعتقدون أنه فى مصلحتهم فقد نادى فيهم أول رجل منهم رأى النبى فى يثرب بأعلى صوته « هذا جدكم قد جاء » (١)

كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى إسرائيل يدعو الى توحيد الاله والى تعاليم التوراة والى تمجيد ابراهيم وموسى إنما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى

ولا شك انهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض الآيات القرآنية وانه كان لهذه الآيات وقع حسن فى نفوسهم جعلهم يؤملون فى هجرة النبى الى يثرب آمالا كباراً

ويظهر أنهم كانوا يعتقدون أوعلى الأقل يرجون أن يتمكنوا من التأثير فيه حتى يدخل فى دينهم حيث يتعاونون على محو عبادة الاصنام وقد يحتمل انهم كانوا يرجون أيضاً أن يتمكن الرسول من التأليف بين البطون اليثربية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التى كانت فى حاجة شديدة الى الهدوء والسكينة وكانوا يعتقدون انه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة فى الجزيرة ولتمكن أهلها من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها

من المحتمل أن آمالا من هذا النوع كانت تجيش فى صدورهم أثناء الفترة التى كانت بين البيعة الكبرى و بين الهجرة

كذلك كان الرسول يرغب فى التقرب الى اليهود نظراً لمكانتهم الرفيعة من الوجهة الأدبية والمالية والسياسية فى البلاد الحجازية وكان يعتقد أن اليهود يدخلون فى ذمته وملته بلا مقاومة بل يرحبون بدعوته التى تشبه فى جوهرها تعاليم

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٨٦

الآباء الأقدمين من بنى إسرائيل حيث يكون منهم ومن البطون العربية أمة واحدة تبذل النفس والنفيس فى سبيل تنفيذ مشروعاته

وقد عقد الرسول بعد قدومه الى يثرب معاهدة ودية مع اليهود وقد جاء ابن هشام بنص هذه المعاهدة و يقول :

قال ابن إسحاق وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم عليهم وشرط واشترط لهم

بسم الله الرحمن الرحيم هـذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش و يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم أمة واحدة من دون النـاس المهاجرون من قريش على ر بعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين و بنو عوف على ر بعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين و بنو الحرث على ر بعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين و بنو جشم على ر بعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين و بنو النجار على ر بعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفـدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين و بنو عمرو بن عوف على ر بعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين و بنو النبيت على ر بعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين و بنو الأوس على ر بعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركون مفرجا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل

ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بغى أو

ابتغى وسيعة ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم

ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس

وانه من تبعنا من اليهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولامتناصرين عليهم وان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غازية غزت معنا تعقب بعضها بعضا وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن وانه من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينة فانه قود به الى أن يرضى ولى المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الاقيام عليه وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه وانه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ ( أى لا يهلك ) إلا نفسه وأهل بيته وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف وأن ليهود بنى الحرث مثل ما ليهود بنى عوف وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف وأن ليهود بنى

---

(١) وفى القرآن آية صريحة نزلت على الرسول فى هذا الشطر من الزمن تقر هذا النص من المعاهدة « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » ( سورة البقرة آية ٢٥٦ )

الاوس مثل ما ليهود بنى عوف إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وأن لبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف وأن البر دون الاثم وأن موالى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لايخرج منهم أحد إلا بأذن محمد صلى الله عليه وسلم وانه لا ينحجز على ثار جرح وانه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم وانه لم يأثم امرؤ بحليفة وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وانه لا تجار حرمة إلا باذن أهلها وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره وانه لا تجار قريش ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة . . . . اه

وقبل أن نتعرض لهذه المعاهدة نقول : ان الصحائف التى عقدها الرسول مع المشركين واليهود تنقسم الى قسمين : القسم الأول يشتمل على عقود وعهود وقعت حقا وشهد بوقوعها القرآن الكريم وأثبتها المؤرخون القدماء. أما القسم الثانى فيشتمل على عهود غير صحيحة نحلت بعد وفاة الرسول لاغراض شتى اذ كان الخلفاء يقرون كل ما وعد به النبى ولو لم يكن مكتوبا

ولا يشك المؤرخون فى أن النبى عقد مع اليهود عقوداً مختلفة بعد حضوره

الى المدينة اذ كان يخاف على حياته وحياة انصاره و يود عقد المحالفات مع اليهود الذين لعبوا دوراً هاماً فى يثرب . وفى القرآن تأنيب لليهود على نقض العهود وهو أصدق دليل على أنه عقدت معهم معاهدات [١]

وقد ذكر ابن هشام عقوداً مختلفة عقدت بين اليهود و بين الرسول عدا هذه المعاهدة [٢] وقال أبو عبيد فى كتاب الأموال : انما كتب رسول الله هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية واذ كان الاسلام ضعيفا وكان لليهود اذ ذاك نصيب من المغنم اذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم فى هذا الكتاب النفقة معهم فى الحروب . . . [٣]

وكانت هناك صحيفة خاصة بينه و بين بنى قريظة و بين الرسول و بين يهود خيبر وتيماء ووادى القرى وذكر ابن سعد عقودا عقدها الرسول مع يهود بنى غدية [٤] وذكر صاحب فتوح البلدان صحيفة عقدت بين الرسول و بين أسرة شريفة من اليهود [٥]

وكل هذا يؤيد وجود معاهدات بين النبى و بين اليهود ولكن من العسير أن نأنس الى جميعها كما يفعل المستشرقون فان ابن اسحق لم يحدثنا عن معاهدات مخطوطة وصلت اليه وانما يكتفى بالرواية عن السابقين وهذا لا يقدح فى قيمة هذه الصحيفة التاريخية التى نرجو أن تزيل بعض الغموض من حياة القبائل العربية واليهودية بالمدينة

---

(١) وكان بينهم وبين رسول الله عهد الى مدة فنقضوا ذلك العهد ( جزء ٣ ص ١٥٨ على الهامش من كتاب جامع البيان للطبرى والرواية عن ابن عباس ) ثم فى الجزء الاول من جامع البيان ص ١٤٢ — ١٤٣ روايات كثيرة فى تفسير الآية الذين ينقضون عهد الله

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤ وجزء ٣ ص ١٩٧

(٣) الروض الانف جزء ٢ ص ١٧ طبع مصر

(٤) ابن سعد : بعثة رسول الله الرسل بكتبه ص ١٨ طبع Wellhausen برلين

(٥) فتوح البلدان ص ٦٠

أما الغرض الذى كان يرمى اليه الرسول من وراء هذه الصحيفة وما اليها من العهود التى عقدها مع بطون يثرب فهو هدم النظام القـديم وايجاد نظام جديد يمكن به أن تتوحد العناصر اليثر بية وأن تعود يثرب بعد فرقة أحيائها مدينـة واحدة فقد كانت يثرب منقسمة الى عدة دوائر وكانت كل دائرة تابعة لبطن من البطون وكانت الدائرة تنقسم الى قسمين يشتمل القسم الاول منها على الاراضى الزراعية بمنازلها وسكانها وكان من الزراع والفلاحين فئة تضم هيئة البطن من أصحاب الأرض الزراعية تعمل فى الفلاحة ولها ما للبطون التى تملك الآطام من الامتيازات والحقوق وفئة كانت تجمع العمال المستأجرين من البطون اليثر بيـة وهم أحرار ولهم حقوق الاحرار ثم وجدت طبقة العبيـد التى لم يكن لها من الحقوق الا القليل

أما القسم الثانى من الدائرة فكان يملك الآطام وكان البطن يملك أطما أو آطاما وهذه الآطام كانت ملكا خاصاً بالاسر العريقة وكان رئيس الاسرة صاحب السلطان فى الاطم كما كان يعتبر زعيما من زعماء البطون

وكانت أهمية الآطام عظيمة فى يثرب فكان يفزع اليها أفراد البطن عند هجوم العدو ويأوى اليها النساء والاطفال والعجزة حين يذهب الرجال لمقـاتلة الاعداء وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثمار ذلك أنها كانت معرضة فى أماكنها المكشوفة للنهب والسلب وكان الاطم مرجعاً لكنز الاموال والسلاح وكان للقوافل المثقلة بالبضائع أن تنزل بالقرب منه كما كانت تقام على أبوابه الاسواق

وكانت الآطام تشتمل — كما نظن — على المعابد وبيوت المدارس[1] اذ كانت فاخرة الاثاث كثيرة الادوات مملوءة بالاسفار فكان يجتمع فيها الزعماء

---

(١) בתי מדרש

للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة حين يهمون بابرام العقود والاتفاقات

ثم وجدت فى يثرب بطون لم تكن تملك الآطام وكانت تقيم فى الاحياء حيث تحمى البطون الكبيرة مواليها من إغارات البطون الأخرى وكانت الاحياء متضامة يلاصق بعضها بعضاً وكانت مع هذا مختلفة فى نظمها الداخلية حيث يهتم كل حى بشؤونه

واذ كانت الآطام فى نظامها قد وجدت فى شمال الحجاز اكثر مما وجدت فى أى بقعة أخرى من بلاد العرب فاننا نرجح أنها كانت متأثرة بالنظم الاجتماعية اليهودية التى كان يجرى عليها اليهود فى وطنهم الاصلى فلسطين

وهنا يعرض هذا السؤال : مم اشتقت كلمة اطم ؟ فان معناها بالعربية غيره بالعبرية. يقول صاحب الروض الانف الاطم اسم مأخوذ من ائتطم اذا ارتفع وعلا يقال ائتطم على فلان اذا غضب وانتفخ والاطامات نيران معروفة فى الجبال لا تخمد فيها تأخذ بعنان السماء فهى أبداً باقية لانها فى معادن الكبريت[1]

أما العبرية فلفعل اطم ( אטם ) معان شتى يقال اطم عينيه أغمضهما وأطم اذنيه سدهما والاطم فى الجدران والحيطان هى النوافذ المغلقة من الخارج والمفتوحة من الداخل ويستعمل الاطم فى السور أى الحائط الضخم

وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم اطم لأنه كان فى امكانهم أن يغلقوا أبوابه وان كانت له نوافذ تقفل من الخارج وتفتح من الداخل

كانت الوظائف المختلفة من دينية وسياسية تنتقل بالوراثة من السلف الى الخلف فى الأسرة الواحدة التى تنفرد بعمل من الأعمال وكانت البطون الكبيرة أصحاب الحكم فى يثرب وكان كل بطن يجتهد فى أن ينفرد بالنفوذ

---

(١) الروض الانف جزء ٢ ص ٥٢

وكان كل بطن من البطون الكبيرة يضم اليه طائفة من البطون الصغيرة تعد من مواليه وكان يشرف على مزارعها ومتاجرها وحقوقها واذا وقعت اغارة عدها واقعة على رعاياه فطالب بالثار أو دفع الدية وكان أفراد البطن الصغير يلجأون الى آطام البطن الكبير اذا هاجمهم العدو وكان البطن الصغير بتابعيته للبطن الكبير مضطراً الى الاشتراك فى الحروب التى توجه الى البطن الكبير والا رمى بالتمرد والعصيان ومع هذا حافظت البطون الصغيرة على شخصيتها ولم تسمح للبطون الكبيرة بأن تحُدّ من حريتها وكان من نتيجة ذلك أن تجنبت البطون الكبيرة كل ما يهيج البطون الصغيرة

وكان هناك شبه توازن فى نظام الحكم بين البطون الكبيرة فكانت تثور بقية البطون اذا هم بطن كبير بالاستئثار بالنفوذ

هذا كل ما يمكن أن نفرضه واقعاً عن نظام الحكم فى يثرب ولا نعلم بالضبط كيف وصلت الى هذا النظام فليس لدينا من المصادر ما نعرف به كيف انتقلت البطون اليثربية من البداوة الى النظام المعقد الذى وصلت اليه قبيل ظهور الاسلام ولكنه من المرجح أن يكون هذا النظام نتيجة لحروب وحوادث وقعت فى قرون مختلفة قبل هجرة الرسول الى يثرب فان النظم الاجتماعية لا توجد الا متأثرة بالحوادث راقية كانت تلك النظم أو منحطة

كان تضافر تلك البطون وتوافقها نافعاً لها كل النفع فى درء الأخطار الخارجية التى كانت تهددها من سائر البلاد العربية وكان يمكن أن يصل هذا التوافق الى شىء من النظام الجمهورى الراقى ولو استطاعت يثرب أن تتحد اتحاداً يقوم على أساس التعاون والتوازن الصحيح لاستطاعت هذه القوة أن تبسط سلطانها على قبائل الجزيرة العربية

وما يذكر فى المراجع العربية من أن بطون يثرب أرادت أن تملك عليها

عبد الله بن أبى وأنها نظمت له الخرز لتتوجه فذلك مشكوك فيه لأسباب منها أن رهط عبد الله كان قد غلب على أمره يوم بعاث فايس من المعقول أن يرتاح الأوس واليهود بعد فوزهم المبين الى تمليك زعيم من الخزرج وكانوا لهم من ألد الأعداء

على أن عبد الله بن أبى لم يكن صالحاً للقبض على ناصية الحكم فى يثرب وانما كان ضعيفاً دساساً متردداً لا يستقر على حال . . .

يضاف الى ذلك أن ايجاد عرش فى يثرب كان يقضى على استقلال البطون وما كان يمكن أن تصل يثرب الى شىء من هذا بغير الحرب وسفك الدماء

كل هذا كان الرسول يعلمه وكان يعلم أنه يتنافر مع أغراضه العظيمة فلم ير بداً من هدم نظام يثرب فقد كان فى حاجة شديدة الى قوم مؤتلفين لم تفرق بينهم الاهواء المتماسكة يستطيع أن يسوسهم بارادته ونفوذه وهؤلاء كانت سياسة الآطام والاحياء مزقتهم شر ممزق فكان من الحزم أن يهدم نظام الطوائف وأن يؤسس نظاماً جديداً وكان سبيله الى غايته أن يعقد المقود بينه و بين البطون اليثربية وان ينشر تعاليم القرآن من ناحية أخرى

كل ذلك جرى عليه الرسول قبل أن يلجأ الى السيف لقهر أعدائه فى السياسة والدين كما سيجىء بيانه . . .

واعل للقصة التى ننقلها عن ابن اسحاق فى السيرة مغرى نعرف به شيئاً فى سياسة الرسول بعد هجرته الى يثرب : قال ابن اسحاق ومرشاس ابن قيس وكان شيخاً قد عسى ، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم . . . . فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا

معهم اذا اجتمع ملأهم بها من قرار فأمر فتى شابا من يهود كان معه فقال اعمد اليهم فأجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الاشهلى وابو أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمر بن النعمان البياضى فقتلا جميعاً . . . ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحرث من الأوس وجبار ابن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه ان شئتم رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا موعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة السلاح السلاح فخرجوا اليها فبلغ ذلك رسول الله فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد ان هداكم الله للاسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين

وقد استغرق ماجاء فى هذه المعاهدة عن اليهود أكثر من نصفها مما يدل على أن الرسول كان يحسب حساباً غير قليل لنفوذ اليهود وسلاحهم

ولكن الذى يتأمل فى هذه الصحيفة يعجب اذ لا يجد للبطون الكبيرة من الأوس والخزرج وبنى قينقاع ذكراً فيها فكيف أمكن أن يعقد النبى عهوداً مع البطون الصغيرة من اليهود دون الكبيرة منها

وللمستشرقين فى هذه الظاهرة رأيان : الأول : ان هذه المعاهدة كانت خاصة بالعرب والبطون اليهودية الصغيرة لأنها كانت منتشرة بين البطون العربية ومتداخلة فيها ومعدودة من مواليها حتى لا يمكن أن يعتبر لها وجود خاص

والثـانى : ان هذه المعاهدة كانت تشتمل على البطون اليهودية الـكبيرة أيضاً من بنى النضير و بنى قريظة و بنى قينقاع ولـكن مؤرخى العرب المتأخرين حذفوا أسماءها من المعاهدة فيما بعد لأنه ساءهم أن يذكر فيها أن الرسول تعاقد مع بطون خالفته وقاومته مقاومة عنيفة انتهت بسفك الدماء [1]

و يؤيد الرأى الأخير أن المؤرخين لم يذكروا البطون الصغيرة التى تعاقدت مع الرسول ضمن من اعتدوا على الأنصار وحاربوهم

ومن المحتمل أن ما جاء فى الصحيفة عن يهود الأوس كان شاملا بنى النضير أيضـاً

وعلى كل حال فليس من شك فى أن النبى قد عقد العقود والعهود مع العرب واليهود بعد حضوره الى يثرب فعلى ذلك أميل الى الاعتقاد بأنها كانت أكثر من معاهدة واحدة لاننا نجد الرسـول يغضب من بنى النضير لأنهم لم يشتركوا فى يوم أحد فى حين انه لم يطلب من بنى قريظة أن يشتركوا معه فى حرب المشركين

ومن جهة أخرى فان عقد معاهدات كثيرة مع بطون كثيرة قد يكون فى مصلحة الرسـول أكثر من عقد معاهدة واحدة تضم جميع البطون لان المعاهدات الـكثيرة تقسم قوة البطون وتضعفها من الوجهة السياسية والحربية بينما يكون الاعتداء على بطن من البطون المجتمعة فى معاهدة واحدة كأنه اعتداء على جميعها

وقد نرى الرسول يحارب بطناً من البطون دون أن تتحرك البطون الأخرى وكأن الحرب التى تقع بين المسلمين والبطن من بطون اليهود لم تمس صحيفتها ولم تنقض شروطها . ولنا عودة لهذا الموضوع فيما بعد

---

(١) ص ٥٢ Die Juden

وقد عقد الرسول معاهدة كانت خاصة ببنى قريظة [١]

أما روح هذه المعاهدات فملائم كل الملاءمة للحالة التى كان عليها المسلمون واليهود فى الفترة الأولى بعد مجىء النبى الى يثرب . . .

لقد قلنا ان الرسول قد أراد أن يؤلف بين القلوب فأحل المسلمين أكل ما أحل لليهود أكله وأحل لهم التزوج مع بناتهم « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » [٢]

كذلك أمر المسلمين أن يصوموا بعض أيام كان اليهود يصومونها [٣] ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته الديانة الوثنية فحسب ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحطم الأصنام ويقضى على العقائد الوثنية لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة لأن العقلية اليهودية لا تأبى أمام شىء يزحزحها عن دينها وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبى من غير بنى اسرائيل بل يعتقدون عقيدة راسخة أنه بعد ان ختمت صحف التوراة وكتب العهد القديم قد انقضى عهد بعث الرسل وظهور الانبياء سواء كانوا من بنى اسرائيل أو من غيرهم [٤] كما يعتقد المسلمون انه لن يبعث نبى بعد الرسول محمد

هذه العقيدة يجب أن لا تغرب عن الاذهان لأنها أساس كل ما حدث بين

---

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) سورة المائدة آية ٤٨

(٣) البخارى جزء ١ ص ٤٩٨

(٤) راجع التلمود كتاب סנהדרין יא בבא בתרא יב

اليهود و بين الرسول من خلاف و نزاع ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف أو لـكان فى الامكان أن يتلافى ما قد ينشأ من ذلك

ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين أنهم أهملوا هذه النقطة الجوهرية فى بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول واليهود مع أنه مما لا شك فيه أنه اذا أهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقاً للبحث فى هذا الموضوع

و بدأ النزاع بين النبي واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين [١] فكان احبار اليهود يوجهون الاسئلة الى رسول الله و يصلون فيها الى حد التعنت فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه [٢]

وكانوا يطالبون النبي بأن يأتى اليهم بالمعجزات « الذين قالوا ان الله عهداليـنا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان . . . تأكله النار . . . [٣]

« يسألك أهل الـكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء . . . [٤]

ثم انتقلت المناقشة الى مخاصمة كلامية فجعل التنزيل يلوم اليهود و يعنفهم « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الـكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .. [٥] ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الـكافرين ( سورة البقرة آية ٨٩ )

ثم ظهرت العـداوة فأخذ النبي يطعن فى يهود يثرب وأخذ اليهود يرمون الانصار بقوارص الكلم فنزلت الآيات الـكثيرة مشيرة الى فتور الاحوال بين الرسول واليهود « أولئـك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٣٥ — ١٨٢
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٦
(٣) سورة آل عمران آية ١٨٣
(٤) سورة النساء آية ١٥٣
(٥) سورة البقرة آية ١٠١

ناصرين [١] »

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون [٢]

وهكذا اشتد النفور حتى كانت المخاصمات تقع بين اليهود والانصار فى الشوارع يتراءون فيها بالالفاظ القبيحة ويَنْتَضِلون كما نعلم من حديث للبخارى انه استبّ رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذى اصطفى محمدا على العالمين فقال اليهودى والذى اصطفى موسى على العالمين فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودى فذهب اليهودى الى النبى بما كان من أمره وأمر المسلم فدعا النبى المسلم فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبى لا تخيرونى على موسى فان الناس يصعَقُون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فاذا موسى باطن جانب العرش فلا أدرى كان فيمن صعق قبلى أو كان ممن استثنى الله... [٣]

ونزل كثير من الآيات فى ذلك الحين متضمنة الطعن المر فى اليهود منها « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا [٤] » ومنها : بئسما اشتروا به أنفسهم بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين (سورة البقرة آية ٩٠) » ومنها مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين »

وأخذ القرآن يذكر بما ارتكبه أجدادهم من الجرائم كعصيانهم لموسى وقتلهم أنبياء بنى إسرائيل وسجودهم للعجل... [٥]

(١) سورة البقرة آية ١٤٦
(٢) سورة آل عمران آية ٢٢
(٣) البخارى جزء ٢ ص ٨٩ وص ٣٠٤ و ٣٥٩
(٤) سورة المائدة آية ٨٥
(٥) راجع سورة البقرة آية ٩٠ — ٩١

ولـكن كل هذا لم يضعف من عزيمة اليهود فاستمروا على مناقشة الرسول ومخاصمة الانصار الى أن حذر التنزيل المسلمين من المجادلة الدينية

« قد نزل عليكم ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بهـا فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره »(١)

فنجم من ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعـد يوم وشعر النبى بأنه لم يوفق الى النجاح فى تحقيق الفكرة التى كان يرمى اليهـا من التأليف بين قلوب اليهود والعرب وايجاد أمة مؤلفة من جميع عناصر يثرب

وهكذا لم يمض ثمانية عشر شهراً من قدوم النبى الى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الـكثيفة وجعل كل فريق يتواصى بالحذر والنفور من الفريق الآخر وكذلك طرأت تغييرات دينية وظهر ما يسمى فى عرف القرآن الـكريم بالنسخ « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير(٢) »

وتحولت قبلة الصلاة الى الـكعبة بعد أن كانت متجهة نحو بيت المقـدس « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام . . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره و إن الذين أوتوا الـكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . . . »(٣) ويحدثنا ابن هشام عن هذا الموضوع فيقول :

ولما صرفت القبلة من الشام الى الـكعبة وصرفت فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً ( قبيل يوم بدر ) من مقدم رسول الله الى المدينة أتى رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الاشرف من اليهود الى النبى فقالوا يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم انك على ملة ابراهيم ودينه ارجع الى قبلتك

---

(١) سورة النساء آية ١٤٠

(٢) سورة البقرة ١٠٦

(٣) سورة البقرة آية ١٣٦ حديث البخارى جزء ١ ص ١٨

التي كنت عليها نتبعك ونصدقك . . .(٤)

وكان هناك طائفة معتدلة من اليهود أرادت أن تصلح بين الفريقين المتخاصمين وتزيل ما بينهما من أسباب النزاع ولكنها أخفقت فى مسعاها لأن السيل كان قد بلغ الزبى فأوجست هذه الطائفة خيفة من استمرار العداء وتوقعت شراً مستطيراً مما يضمره كل من الفريقين للآخر من الحقد والبغضاء وكان مخيريق اليهودى رفيق الرسول من أنصار هذه الطائفة وقد حار فى كيفية معالجة المشكلة التى صارت أعقد من ذنب الضب

وكان هناك عنصر آخر لعب دوراً خطيراً فى الحوادث اليثربية وهو العنصر الذى يضم أعداء اليهود السياسيين من بنى الخزرج فقد كانوا أشد الأقوام خصومة لليهود ولم يكونوا مخلصين للرسول فكان همهم منحصراً فى أن يصبوا الزيت ليزيدوا فى إشعال نار العداوة بين الرسول و بين اليهود وقد عرف بعضهم عند المسلمين باسم المنافقين وكان عبدالله بن أبى من زعماء هؤلاء المنافقين

وقد استمرت هذه الأزمة الشديدة الى يوم واقعة بدر الكبرى

ويظهر ان اليهود كانوا يرجون أن يضجر الرسول من عنادهم وحملهم على قبول دين جديد فيكتفى بنشر دعوته الدينية بين القبائل العربية ونستنتج ذلك من أنهم لم يكونوا يرغبون فى محاربة الأنصار مع أن يوم بدر كان فرصة مناسبة لمن كان فى مركزهم

وكان النبى لا يريد أن يحارب اليهود فى تلك الظروف التى لم تكن ملائمة بل كان يؤجل الدخول معهم فى حرب حتى تتحسن الأحوال وتكون أكثر ملاءمة وفى الواقع كان اليهود يفضلون السلام والسكينة على المشاحنات والمخاصمات لأن السلام والسكينة أساس النجاح فى الأعمال التجارية والصناعية

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٤٢

ويميل بعض المستشرقين الى الرأى القائل بأن الحالة كادت ترجع بين اليهود والمسلمين الى ما كانت عليه قبل اشتداد النفور والخصومة من الألفة والولاء لولا أن حدثت موقعة بدر الكبرى فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة التى انتصر فيها المسلمون انتصاراً مبيناً على قريش [١] فقد أصبح المسلمون بعد هذا الظفر العظيم أصحاب الأمر والنهى فى مدينة يثرب وشرعوا يأخذون بالثأر من الافراد والجماعات التى أساءت اليهم وطعنت فى أعراضهم

ولم يشترك اليهود مع الرسول فى محاربة قريش يوم بدر لأنه لم يكن مشترطاً عليهم فى المعاهدة أن يشتركوا فى الغزوات الخارجية عن دائرة المنطقة اليثربية وكذلك كان عدد الأوس والخزرج فى هذه المعركة قليلاً وكان أغلب المحاربين من المهاجرين ·

كان النبى فى أول الأمر يرجو أن يدخل اليهود فى الاسلام بطريق المجادلة والمناقشة فلما لم تنجح معهم هذه الطريقة صبر عليهم الى يوم بدر حيث صارت الظروف ملائمة للدخول معهم فى حرب دموية

لذلك ظهرت عند الأنصار بعد موقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جلية حيث صمموا على أحد أمرين ان يندمج اليهود مع العرب بواسطة اعتناق الاسلام أو يحاربوهم حتى يجلوهم

وكان المهاجرون ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود فى يثرب لأن حالتهم كانت سيئة جداً إذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج

وكان أعداء اليهود من الخزرج يشجعون النبى على الشروع فى محاربة

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٩٦ — ٢٣١

(٢) تاريخ الخميس جزء ١ ص ٤٠٦ و ص ٤٠٨ فى قتل العصماء بنت مروان وقتل أبى عفك

اليهود كما وضحنا ذلك من قبل

ويحدثنا ابن هشام عن هـذه الأحوال فيقول انه بعد مرور بضعة أيام من موقعة بدر جاء الرسول الى حى بنى قينقاع وجمعهم بسوقهم ثم قال « يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم »[1]

وانى لأعتقد أن لأصرار النبى على دخول اليهود فى الاسلام سبباً آخر فوق الأسباب التى ذكرتها وهو أن دخول أهل الكتاب فى الاسلام يزيد فى هيبته ويكبر شأنه فى نظر قريش ذات المجد التليد وتدخل الجماعات الكثيرة فى الاسلام بدون مقاومة

أما الاسباب التى حملت النبى على البدء بمحاربة بنى قينقاع من بين جميع اليهود فترجع الى أن بنى قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة فى حى واحد من أحياء الاقوام العربية فأراد النبى أن يطهر المدينة وأحياء الأنصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه

وغنى عن البيان أن بنى قينقاع كانوا أغنى طوائف اليهود فى مدينة يثرب فكانت بيوتهم تحتوى على الأموال الطائلة والحلى الكثيرة من الفضة والذهب وكان العرب يطمعون فى كل ذلك

ثم كان عدد بنى قينقاع غير كثير فكان من السهل مقاتلتهم واستئصال شأفتهم .

وفوق كل هـذا فقد كانت هناك عداوة بين بنى قينقاع و بقية اليهود سببها أن بنى قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بنى الخزرج فى يوم بعاث وقد أثخن بنو النضير و بنو قريظة فى بنى قينقاع ومزقوهم كل ممزق مع أنهم دفعوا الفدية عن كل من

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

وقع فى أيديهم من اليهود وقد استمرت هـذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم بعاث حتى وقعت الحرب بين الانصار و بين بنى قينقاع فلم ينهض معهم أحد من اليهود فى محاربة الأنصار

وقد أشار القرآن الى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله « واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان و إن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ... »(١)

فيظهر من هذه الآية مقدار ما كان بين بنى قينقاع و بين بنى النضير وقريظة من العداوة والبغضاء و يظهر أيضاً أن بنى قينقاع كانوا أصحاب مزارع فأخرجهم أبناء جلدتهم منها وأرغموهم على الالتجاء الى حى واحد فى داخل المدينة

على أن هناك عاملا آخر ذا قيمة كبيرة فى حمل الرسول على البدء بمحاربة بنى قينقاع وهو أن بنى قينقاع كانوا من موالى بنى الخزرج وكانت أغلب بطون بنى الخزرج قد دخلت فى الاسلام ما عدا بطن عبد الله بن أبى فقد كان يظهر الايمان و يبطن الكفر وكانت بطون بنى الخزرج توافق على مشروعات النبى بدون معارضة

***

ننتقل من هذا الى ما رد به بنو قينقاع على أقوال النبى إذ أجابوا بكل جرأة وتبجح « يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبْتَ منهم فرصة إنا والله لئن حار بناك لتعلمن انا نحن القوم »(٢)

و يظهر من هذا الرد أن بنى قينقاع كانت تعتمد على معاضدة حلفائهم من الخزرج فى نزاعهم مع الرسول قبل كل شىء إذ لا يتصور أن بطناً صغيراً كبطن

---

(١) سورة البقرة آية ٧٣

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٣٤

بنى قينقاع يجرؤ على اعلان الحرب ضد أغلب بطون يثرب ولـكن بنى الخزرج خذلوهم ولم يتحركوا لنجدتهم رغم انهم من مواليهم

« وحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه فقام اليه عبد الله بن أبى فقال يا محمد أحسن الى موالى وكانوا حلفاء الخزرج فأبطأ عليه الرسول فقال يا محمد أحسن الى موالى فأعرض عنه النبي فأدخل عبد الله يده فى جيب درع الرسول فقال له الرسول أرسلنى وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا قال ويحك أرسلنى قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أر بعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوا من الاحمر والاسود تحصدهم فى غداة واحدة انى والله امرؤ اخشى الدوائر فقال الرسول هم لك . . . وكان محاصراً إياهم خمس عشرة ليلة . . . ثم أجلاهم الرسول من المدينة فخرجوا منها الى اذرعات بالشام » (١)

ويحدثنا الواقدى أن الرسول أمر بجمع أموالهم وأسلحتهم ثم قسمها على الأنصار بعد أن حجز منها الخمس وأبقى لبنى قينقاع ذراريهم ونساءهم وأمهلهم ثلاثة أيام ولما رحل بنو قينقاع من يثرب نزلوا بوادى القرى حيث احتفى بهم اخوانهم من اليهود فأقاموا عندهم على الرحب والسعة الى أن رحلوا نهائياً الى الشام (٢)

وفى ابن هشام قصة يذكرها على أنها تتضمن السبب فى اعلان المسلمين الحرب على بنى قينقاع الا أن المستشرقين لاحظوا أنه لم يروها عن ابن اسحق الذى هو المرجع الثقة لابن هشام ثم هى ليست موجودة فى كتاب الواقدى لذلك هم يعتبرونها قصة متأخرة وغير واقعية » وفحواها ان امرأة من العرب جلست الى صائغ بسوق بنى قينقاع فجعل بعض اليهود يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى طوقها فلما انكشفت سوأتها ضحكوا منها فوقع الشر بين الأنصار و بين بنى قينقاع (٣)

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤
(٢) الواقدى ص ٩٤
(٣) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

وقد أشار القرآن الى حادثة اجلاء بنى قينقاع عن المدينة بقوله : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم و بئس المهاد قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لاولى الأبصار[1]

***

يظهر ان أمر اجلاء بنى قينقاع كان له وقع عظيم فى نفوس اليهود فقد امتنعوا بعد ذلك عن المجادلة الدينية وكفوا عن رمى المسلمين بقوارص الكلم ودخلت هيبة المسلمين فى قلوب البطون العربية التى لم تكن دخلت فى الاسلام فانفسح المجال أمام النبى لنشر دعوته

ثم جاء يوم أحد فى شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة « فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس ومعه عمرو بن العاص وغيره من الزعماء فأقبلوا حتى نزلوا بحنين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة » ثم خرج اليهم رسول الله فى ألف من أصحابه حتى اذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبى بثلث الناس وقال علام نقتل أنفسنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل الريب والنفاق[2]

ولم يشترك أحد من اليهود فى واقعة أحد الا رجل اسمه مخيريق « كان رجلا غنياً كثير النخيل وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد فى علمه وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد[3]

---

(١) آل عمران آية ١٣
(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٤٦ — ٤١٢
(٣) ابن هشام ج ٢ ص ١١٠

وقد كانت موقعة أحد فى يوم سبت فأبى اليهود أن يحملوا السلاح فى ذلك اليوم و رفضوا الاشتراك مع الرسول فى غزوة أحد معتمدين على أن المعاهدة التى كانت بينهم و بين النبي تسمح لهم بالتخاف عن المعارك التى تقع بعيداً عن المدينة كما ذكرنا سابقاً

ولكن مخيريق اليهودى قال : لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته وقال ان أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ماشاء ثم غدا الى رسول الله فقاتل معه حتى قتل فقال الرسول مخيريق خير اليهود (١)

وفى ابن هشام زعم منسوب لغير ابن اسحاق ملخصه ان الأنصار سألوا النبي يوم أحد : ألا تستعين بحلفائنا من اليهود فقال لا حاجة لنا فيهم (٢)

غير ان المستشرقين يرتابون فى صحة هذا الحديث كما هو شأنهم فى كل ما يرويه ابن هشام عن غير ابن اسحق ويستدلون على عدم صحته بأن الرسول غضب من اليهود بسبب عدم اشتراكهم معه فى يوم أحد واتخذ من امتناعهم عن ذلك سبباً لاعلانه الحرب على بنى النضير كما سنبين ذلك فيما بعد

و يؤيد صدق نظر المستشرقين فى هذا الزعم ما نقلناه عن ابن هشام نفسه من ثناء الرسول على مخيريق وقوله مخيريق خير اليهود فانه لم يقل ذلك الا لان مخيريقاً لم يتخلف عن تلك الموقعة كما تخلف بقية اليهود

ولصاحب الطبقات الكبرى رواية تفيد أن النبي بعد ان خرج بجيوش المسلمين الى أحد حتى اذا كان بالشيخين وهما أطمان التفت فنظر الى كتيبة خشناء لها زجل فقال : ما هذه قالوا : حلفاء بن أبي من يهود فقال رسول الله : لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك . . . (٣)

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣
(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣
(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٢٧

أما نحن فنغض الطرف عن هذه الرواية لانها تناقض ما قصصنا عن ابن اسحق . على أن الذى يمعن نظره فى الحالة التى كان عليها اليهود بعد اجلاء بنى قينقاع عن المدينة يتضح له جلياً أنه لم يبق لعبد الله بن أبى موال من اليهود اذ كان بنو النضير وقريظة من ألد أعدائه كما مر ذلك فى عدة مواضع . . .

ودخلت الأشهر الحرم بعد يوم أحد فلم يحصل فيها نضال ولا قتال ثم اتجه النبى لمحاربة بنى النضير

وهنا نقطة خلاف هامة بين ابن هشام و بين اليعقوبى فابن هشام يقول ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد خروج بنى قينقاع من المدينة أى فى ربيع الاول من السنة الثالثة للهجرة ويذكر ابن هشام أنه بعد مقتل ابن الاشرف قال الرسول « من ظفرتم به من اليهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على بن سنينة رجل من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حويصة بن مسعود اذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه و يقول : أى عدو الله أفقتلته أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله ! قال محيصة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك . . . [٢]

ولكن اليعقوبى يقول إن النبى أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد[١] أى قبيل محاصرته لبنى النضير أى فى ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة وكان قتله بمثابة اعلان الحرب عليهم لأنه كان زعيما من زعمائهم وكان قاتله أبو نائلة أخو كعب بن الاشرف من الرضاعة ومعه أربعة من الانصار[٣]

ويقول العالم Leszynsky إن العلاقات بين الرسول و بين بنى النضير كانت على ما يرام قبل يوم أحد فلو ان قتل كعب بن الاشرف حدث بعد اجلاء بنى

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٤٤
(٢) تاريخ اليعقوبى جزء ٢ ص ٤٩ وتاريخ الخميس جزء ١ ص ٤٦٤
(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٤٤

قينقاع أى قبل واقعة أحد لما أمكن أن تكون هناك علاقات حسنة بين الرسول و بين بنى النضير لان كعب بن الاشرف كان من زعماء بنى النضير وفوق ذلك فقد كان الرسول محتاجا الى معاضدتهم قبل يوم أحد(١)

وانى أميل الى رأى اليعقوبى وأعتبره تصحيحاً هاما لحادثة تاريخية كبيرة اذ لا يتصور أن الرسول يحرض انصاره على قتل أفراد من اليهود قبل يوم أحد وليس هناك أى دليل على أن العداوة وجدت بين الانصار و بين بنى النضير الا قبيل محاصرة الانصار لآطام بنى النضير حيث كان اليهود يوجسون خيفة من أعمال الارهاب التى كان الانصار يقومون بها

و يرتاب المستشرقون فيما يقوله ابن هشام من أن سبب قتل كعب انما هو قصيدة الرثاء التى رثى بها قتلى بدر الكبرى وارتياب المستشرقين فى هذا مترتب على ارتيابهم فيما قاله ابن هشام عن وقت قتل كعب و يقولون انه أعوزه المبرر لاغتيال كعب فى الوقت الذى ذكره فزعم أنه قصيدة الرثاء لقتلى بدر وانه التشبيب بنساء المسلمين(٢)

ويحدثنا البخارى أن كعب بن الاشرف قد آذى الله ورسوله فأتاه محمد بن مسلمة فقال أردنا أن تسلفنا وَسقا أو وسقين قال أترهنونى نساءكم قالوا كيف نَرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنونى أبناءكم قالوا كيف نرهنك ابناءنا فيُسب أحدهم فيقال رُهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن نرهنك السلاح قال سيفان يعنى السلاح فوعده أن يأتيه فقتلوه ثم أتوا النبى فأخبروه (٣)

ولصاحب الاغانى قصيدة ينسبها للربيع بن أبى الحقيق تلائم الحالة التى كان عليها بنو النضير بعد قتل كعب ابن الاشرف

---

(١) ص ٦٨ Die Juden

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٤٣

(٣) البخارى ج ٢ ص ١١٥

ألا يا لَقَوْمى لا أرى النجم طالعاً ولا الشمس الا حاجبى بيمينى
معذبتى خلف القفـا بعمودها فجل نكيرى أن أقول ذرينى
أمين على أسرارهن وقد أرى أكـون على الاسرار غير أمين
فللموت خير من حراج موطأ مع الطعن لا يأتى المحل لحين(١)

أنذر النبى بنى النضير بأن يخرجوا من آطامهم و ينزحوا من يثرب فى مدة عشرة أيام ولكنهم رفضوا الاذعان لهذا الانذار

***

وكان انذار الرسول لهم بذلك بمثـابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم فى واقعة أحد وكأن الرسول كان يعتبرها كغزوة موجهة الى مدينة يثرب فكان على بنى النضير أن يخرجوا للقاء العدو كما تقضى شروط المعاهدة

ثم يظهر ان بنى قريطة كانوا مرتبطين بعهد آخر غير عهد بنى النضير وأن الشروط كانت غير شروط عهد بنى النضير اذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك فى واقعة أحد كما طالب بنى النضير ولم يثأر منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثأر من بنى النضير

وليس معقولا أن يغضب الرسول من بنى النضير لعـدم خروجهم الى الوغى فى واقعة أحد دون أن تـكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها

و يعتقد العالم Leszynsky ان ماجاء فى الحديث من ان يوم السبت يوم عبوس وغدر يرجع الى اعتذار بنى النضير الممقوت وان جميع الأحاديث التى من هذا النوع ترجع الى حادثة تاريخية ومن هنا نفهم ان غضب الرسول من اعتذار بنى النضير قد ترك فى نفسه أثراً سيئاً من نحو يوم السبت بوجه عام(٢)

و يقول الاستاذ النجار ان هذا القول ليس حديثاً وانما هو من كلام الناس

---

(١) الاغانى ج ٢١ ص ٦٢
(٢) ص ٧٠ Die Juden . . .

على أن بعضاً يتشاءم به كما أن بعض الناس يتيمن به و يتشاءم بغيره وليس ذلك من الحديث فى شيء . . . اه

ويذكر مؤرخو العرب سبباً آخر لاعلان الحرب على بنى النضير غيرامتناع اليهود عن الاشتراك فى يوم أحد واعتذارهم بيوم السبت فيقول ابن هشام : ان الرسول خرج الى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنىعامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الغمرى للجوار الذى كان رسول الله عقده لهما فلما أتاهم رسول الله يستعينهم قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليهثم خلا بعضهم ببعض فقالوا انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — والرسول الى جنب جدار من بيوتهم قاعداً — فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك عمرو بن جحاش أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة فأتى رسول الله من السماء الخبر بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً الى المدينة فلما استلبث النبى أصحابه قاموا فى طلبه حتى انتهوا اليه فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به فأمر النبى بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم . . . (١)

لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبهم بعدم وجود ذكرها فى سورة الحشر التى نزلت بعد اجلاء بنى النضير.

على اننا لو سلمنا بصحة هذه الرواية فاننا لا نجدها كافية لاشهار الحرب على جميع بطون بنى النضير اذ نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود ان كل جرم من جهة فرد أو عدة أفراد يقع عقابه على فاعليه وأهل بيتهم دون أن يمس غيرهم بشيء من الأذى

والذى يظهر لكل ذى عينين أن بنى النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبى

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١١٣

واغتياله على مثـل هذه الصورة لانهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدراً لمـا كانت هناك ضرورة لالقاء الصخرة عليه من فوق الحائط بل كان فى استطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحادثهم اذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه

وقد أراد بنو النضير أن يذعنوا لحـكم الرسول ويجلوا عن يثرب ولـكن « رهطاً من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبى وديعة بن مالك وسويد وداعى قد بعثوا الى بنى النضير أن البثوا وتمنعوا فانا لن نسلمـكم ان قتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا (١)

وقد طلب بنو النضير من بنى قريظة أن ينجدوهم فلم يفعلوا وصرح كعب ابن أسد زعيم بنى قريظة انه لا يريد أن ينقض حِلْفَه مع الأنصار (٢)

ويشير القرآن الى غدر عبـد الله وقومه بيهود بنى النضير بقوله « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولـئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون ... (٣)

وكانت آطام بنى النضير حصينة جداً وكان من المحال فتحها فى مدة وجيزة « لا يقاتلونكم جميعاً الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر . (٤) لذلك أمر الرسول بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه ان يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها.... (٥)

---

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠

(٢) الواقدى ص ١٦٣

(٣) سورة الحشر آية ١١

(٤) سورة الحشر آية ١٤

(٥) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠ وحديث البخارى جزء ٢ ص ٢٥٢

ويظهر أن قطع النخل وتحريقه كان سبباً فى تسرب اليأس الى قلوب اليهود اذ وجدوا أنفسهم بين أمرين اما الاذعان لحكم الرسول واما الخروج من المدينة لمهاجمة المسلمين ومنعهم من حرق النخيل وكانت ثمارها من أهم مرافق الحياة فاختاروا الاذعان لحكم الرسول وكان ذلك رأى سلام بن مشكم « فسأل الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام باذرعات فكان أشرافهم من سار منهم الى خيبر سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب فلما نزلوها دان لهم أهلها [١]

وقبل أن ينزح بنو النضير من منازلهم هدموا البيوت عن نجاف بابهم فوضعوها على ظهر البعير وانطلقوا بها [٢] وكانت هذه الرواية المبهمة سبباً فى أن يقول بعض المستشرقين ان الاخشاب كانت غالية فى الاقاليم الصحراوية فأخذها اليهود معهم ليبيعوها ولكننا لا نميل الى تفسير ذلك على هذا المنوال بل أقول ان هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة وهى أن كل يهودى يعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبنى اسرائيل أن يحفظوا بالايمان بالله واحد ولا يبدلوه ولو عذبوا وقتلوا [٣] فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم وهى عادة متبعة عند اليهود الى يومنا هذا و يظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يصنعون تلك الصحيفة ( מזוזה ) فى داخل النجاف خوفاً من اتلاف الهواء أو مس الأيدى فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها

ويقول القرآن بصدد اجلاء بنى النضير « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم

---

(١) جزء ٣ ص ٥١ ابن هشام
(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠
(٣) كتاب تثنية فصل ٦ آية ٥

حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الالباب[١]

ويصف ابن هشام خروجهم من آطامهم بقوله « انه حدث أنهم انتقلوا بالنساء والابناء والاموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم...[٢]

ويقول الواقدى إن النساء تحلين بحليهن وتزين أحسن زينة حتى بدت الواحدة منهن غاية فى الجمال وكان يبدو عليهن السرور والابتهاج بدرجة أدهشت المسلمين وأما منافقو المدينة فقد نكسوا رؤسهم بعد ذلك حتى قال عبد الله بن أبى أنه قد أصبح يشعر بأنه صار رجلا أجنبياً فى وطنه غريباً عن بلاده بعد اجلاء بنى النضير[٣]

وقد غنم الانصار بقية الامتعة التى لم يستطع بنو النضير حملها معهم وكان منها ٥٠ درعاً و ٣٤٠ سيفاً[٤]

وقد كانت هذه المغانم لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الاولين دون الانصار الا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فأعطاهما الرسول[٥] ويذكر القرآن هذه المغانم « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون[٦]

ولم يسلم من بنى النضير الا رجلان يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فاحرزاها[٧]

---

(١) سورة الحشر آية ٢
(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١
(٣) الواقدى ص ١٦٥
(٤) الواقدى ص ١٦٤
(٥) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١
(٦) سورة الحشر آية ٨
(٨) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

وقد قيل بمناسبة اجلاء بنى النضير شعر كثير بعضه مدح و بعضه ذم وأهم ما يلفت نظرنا من ذلك الشعر قصيدة قالها عباس بن مرداس يذكر جلاء بنى النضير و يبكيهم

لو ان قطين الدار لم يتحملوا　　وجدت خلال الدار ملهى وملعبا
فانك عمرى هل رأيت ظعائنا　　سلكن على ركن الشطا فتيأبا
اذا جاء باغى الخير قلن بشاشة　　له بوجوه كالدنانير مرحبا
فلا تحسبنى كنت مولى ابن مشكم　　سلام ولا مولى حُيي بن أخطبا

فقال خوات لعباس بن مرداس أأنت الذى رثيت اليهود وقد كان منهم فى عداوة الله ما كان فقال عباس انهم كانوا أخلائى فى الجاهلة وكانوا قوماً أنزل بهم فيكرمونى ومثلى يشكر ما صنع اليه من الجميل ثم أنشد

هجوتَ صنيع الكاهنين وفيكم　　لهم نعم كانت من الدهر ترتبا
أولئك أحرى إن بكيت عليهم　　وقومك لو أدوا من الحق موجبا
من الشكر إن الشكر خير مغبة　　وأوفق فعلا للذى كان أصوبا
فصرت كمن أمسى يقطع رأسه　　ليبلغ عزا كان فيه مركّبا
فبكّ بنى هارون واذكر فعالهم　　وقتلهم للجوع إذ كان مسغبا
أخوّات أذْر الدمع بالدمع وابكهم　　وأعرض عن المكروه منهم ونكبا
فانك لو لاقيتهم فى ديارهم　　لالفيت عما قد تقول منكّبا
سراع الى العليا كرام لدى الوغى　　يقال لباغى الخير أهلا ومرحبا

# الباب السابع

## غزوة بني قريظة

تحريض زعماء بنى النضير لبنى قريش وغطفان على محاربة المسلمين — انحياز زعماء بنى النضير الى بنى قريش الوثنيين — هل تعتبر هذه المحالفة عملا مخالفا لاوامر التوراة ؟ — احتجاج القرآن على هذه المحالفة — يوم الاحزاب — مطامع قريش وغطفان واليهود من وراء هذه الغزوة — تحريض حيي بن أخطب لبنى قريظة على نقض معاهدتهم مع الرسول — محالفة سرية بين الرسول وبين غطفان — فشل يوم الاحزاب وأسبابه — حصار الرسول لبنى قريظة — نزول بنى قريظة على حكم الرسول — اشفاق الاوس على حلفائهم بنى قريظة — تنفيذ حكم الاعدام فى رجال بنى قريظة — نتيجة غزوة بنى قريظة — كثرة شعر العرب فى يوم الاحزاب وبنى قريظة

لما نزل أشراف بنى النضير فى خيبر أخذوا يفكرون فى الثأر من الانصار وجعلوا يفكرون فى الوسائل التى توصلهم الى آطامهم وتردهم الى مزارعهم فى منطقة يثرب فعزم نفر من اليهود فيهم سلام بن ابى الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع أن يحزبوا الاحزاب على المسلمين « فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم الى حرب رسول الله وقالوا انا سنكون معكم حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر اليهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم الى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد

تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه . . . (١)

ومن ينظر الى حالة بنى النضير التعسة التى صاروا عليها بعد اجلائهم عن بلادسكنوها منذ قرون وكانوا فيها أصحاب السلطان المطلق والثروة الطائلة والمزايا الواسعة لا يوجه اليهم أقل لوم على محاولتهم الرجوع الى أرضهم وبحثهم عن الانصار والحلفاء الذين يعينونهم على تحقيق أملهم والثأر من خصومهم فان هذه سجية من السجايا البشرية وطبيعة من الطبائع الانسانية بل وعمل مشروع مقبول لدى جميع الامم

لكن الذى يلامون عليه بحق والذى يؤلم كل مؤمن باله واحد من اليهود والمسلمين على السواء انما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود و بين بنى قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود اديان قريش على دين صاحب الرسالة الاسلامية

نعم ان ضرورات الحروب أباحت للامم استعمال الحيل والاكاذيب والتوسل بالخدع والاضاليل للتغلب على العدو ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الاصنام أفضل من التوحيد الاسلامى ولو أدى بهم الامر الى عدم اجابة مطلبهم لأن بنى اسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الامم الوثنية باسم الآباء الاقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لاتحصى من تقتيل واضطهاد بسبب ايمانهم باله واحد فى عصور شتى من الادوار التاريخية كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين

هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم الى عبدة الاصنام انما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم و يناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الاصنام

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٦٩

والوقوف معهم موقف الخصومة

وقد أشار القرآن الى عمل النفر من اليهود وتحزبهم مع قريش وغطفان على الاسلام بقوله « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا »(١)

ثم أقبلت جموع قريش فى شوال سنة خمس ونزلت بمجتمع الاسيال من رومة بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نَقَمَى الى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره الخندق بينه وبين القوم ..(٢)

وقد أخذ المسلمون آلات الحفر من مساح وكرازين ومكاتل من بنى قريظة الذين بقوا على الولاء ولم ينقضوا عهدهم فحفروا بها الخندق حول المدينة (٣)

ويعتقد المستشرقون أن مؤرخى العرب قد بالغوا فى اخبار يوم الخندق وأدخلوا فيها الاساطير التى تسد على الباحث سبيل استخلاص الصحيح من الحوادث .

وكان للاحزاب فى يوم الخندق قوة عظيمة لا تقل عن ١٠٠٠٠ مقاتل وكانوا مسلحين بافخر الاسلحة وكانت لديهم الخيول الكثيرة فان استعدادهم كان كاملا من الوجهة المادية ولكنه كان ناقصاً نقصاً كبيراً من الوجهة المعنوية اذ لم تكن لهم غاية مشتركة تجمع بين قلوبهم وتحملهم على الاخلاص فى أعمال الحرب

فقد كان السبب فى اشتراك غطفان فى هذه الحرب أن اليهود وعدوهم بأن يعطوهم ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع وحدائق خيبر (٤) اذا تم لهم النصر وكانت

---

(١) سورة النساء ٥١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٣) الواقدى ص ١٩٣

(٤) الواقدى ١٩١

قريش تريد من مواصلة القتال أن تثأر لقتلى بدر وأحد

وهناك سبب آخر لم يذكره المؤرخون من العرب والافرنج وهو أن قريشاً رأت أن وجود قوة معادية لاهل مكة فى شمال الحجاز ضار بهم ومؤد الى كساد تجارة مكة فكأنهم قد اضطروا الى الحرب اضطرارا ليتمكنوا من أن يفتحوا لتجارتهم طريق القوافل الى الشام

وقد دخل أبو سفيان ونفر من زعماء قريش بين استار الكعبة حتى التصقت أكبادهم بها وأقسموا ليواصلنّ القتال حتى لا يبقى فيهم رمق من الحياة (١)

وأما اليهود فقد كان رائدهم غير الذى كان لحلفائهم من بنى قريش وغطفان كما ذكرنا قبلا

وقد كان هناك عامل آخر أضعف من قوة هذا الجيش العظيم ونقص من هيبته ذلك انه لم يكن موحد القيادة فلم يكن الأمر كله فيه بيد أبي سفيان قائد قريش لذلك سرعان ما ظهر الخلاف فى الرأى والعمل بين قواد الجيوش

وبعد أن مضت بضعة أيام غير كثيرة تبادل فيها الفريقان المناوشات والمبارزات اتضح لزعماء الاحزاب أن الحرب قد لا تنتهى الا اذا انضم بنو قريظة اليهم فقد كان بقاؤهم على الولاء للمسلمين من جهة وعدم امكان جيوش الاحزاب أن تتعرض لهم من جهة أخرى مما يزيد فى قوة المحصورين الذين كانوا يأخذون منهم المؤن والسلاح وآلات الحفر وكانت آطامهم بين جيوش المسلمين والاحزاب بمثابة السور الذى لا يخترق

لذلك أخذ حيي بن أخطب صاحب مشروع يوم الخندق يؤثر فى أبناء جلدته من بنى قريظة ويحرضهم على نقض المعاهدة التى كانت بين كعب بن أسد والرسول ويقول له « قد جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش وسادتها

---

(١) الواقدى ص ١٩٠

حتى أنزلتهم بمجتمع الاسيال . . . . . . . . . . فلم يفلح فى أول الامر لان الزعيم القرظى أبى أن ينقض صحيفته مع الأنصار وقال يا حيى بن أخطب جئتنى والله بذل الدهر و بجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد و يبرق ليس فيه شىء و يحك فدعنى وما أنا عليه فانى لم أر من محمد الا صدقا ووفاء فلم يزل حيى بكعب يفتل له فى الذروة والغارب حتى سمح بما طلب وأعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده وبرىء مما كان بينه و بين الرسول . . (١)

وقد أرهب هذا العمل المسلمين لانهم علموا ما يحتمل أن ينجم من انضمام بنى قريظة الى الاعداء واقتراب جيوش الاحزاب الى يثرب وقد عظم البلاء واشتد الخوف حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق بين بعض المنافقين حتى قال أحدهم كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط . . . ولما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله بعض رجاله الى قائدى غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه و بينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب . . . (٢)

وقد كان هذا الاتفاق بمثابة الهزيمة التامة لجيوش الاحزاب إذ أخذ القواد بعده يتناولون الدسائس وأخذت كل فئة تضمر الشر للاخرى ثم فسد الامر بين الاحزاب و بين بنى قريظة حيث شعر بنو قريظة أن تغييرا أخذ يطرأ على الحالة فطلبوا من حلفائهم رهائن من الناس وأخذ بنو قريش وغطفان يلومون بنى قريظة و يقولون لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدا فأرسلوا اليهم أن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا فاننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تنتشروا الى بلادكم

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤
(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك فارسلوا لنا الرهائن حتى نطمئن وأما بنو قريش وغطفان فقالوا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فاذا كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فأبى عليهم بنو قريظة

وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتيـة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم . . . . ثم تهيأت قريش وغطفان للرحيـل فانشمرت راجعة الى بلادها . . . (١)

وقد وافق المستشرقون على معظم أخبار الخندق التى سردناها الى هنا وأما الذى لا يوافقون عليه فهو ما جاء فى المراجع العربية من أنه بعد أن كتبت المعاهدة بين المسلمين وبين قائدى غطفان تناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال ليجهدوا علينا . . . (٢)

لان ذلك قد يناقض الواقع اذ دب روح الشقاق بين الاحزاب بعد اثبات هذه الصحيفة بين الرسول وبين غطفان لا قبلها

على أن غطفان لم تشترك فى القتال الا طمعا فى ثمار خيبر وقد علم الرسول ذلك حق العلم فوعد غطفان ما وعد وفضلت غطفان ما وعدها به الرسول على ما اتفقت مع اليهود عليه وإن كان أقل اذ كان ثلث ثمار المدينة لانها رأت أنها ستفوز بهذه المنحة دون أن تسفك قطرة واحدة من دمائها

ويلاحظ العالم Leszynsky أن رواية تناول سعد بن معاذ للصحيفة وتمزيقه اياها تشبه ما يقال عن الرومان أثناء حصار جيوش الغلواة لمدينة روما اذ حدث أنه بعد أن تعهد المحصورون بان يدفعوا غرامة مالية للجيوش المتوحشة تقدم بطل من أبطال روما فتناول المعاهدة ومزقهـا قائلا : ان روما لا تشترى استقلالها بالدراهم وانى سأغسل عن وطنى هذا العار . . . ولكن روما دفعت الغرامة وعادت جيوش

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٨٤
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٧٧

الفلواة الى وطنها . . . (١)

وهناك سؤال يتردد فى نفس الباحث وهو لماذا لم يطلب بنو قريظة من قريش وغطفان رهن الرجال قبل تلك الصحيفة لكن يظهر أن قريشا لم تدرك أن الشر انما جاء من ناحية غطفان لان الصحيفة كانت من قبيل المعاهدات السرية التى تعقد بين الدول فى الوقت الحاضر (٢)

ومهما يكن من شىء فقد تخلص المسلمون من خطر جسيم كان يهدد كيان نهضتهم وينذر بسقوط يثرب

وقد نتج من انضمام بنى قريظة الى جيوش الاحزاب ونقضهم المعاهدة التى كانت بينهم وبين النبى أن الرسول لم يمهل عليهم بعد تخلصه من جيوش الاحزاب بل بدأ يحاصرهم فى نفس اليوم الذى أخذت فيه قريش وغطفان تنجلى عن المدينة حتى أنه أمر من كان معه سامعا مطيعا ألا يصلوا العصر الا ببنى قريظة

ولم يقدر حيى بن أخطب الذى كان سببا فى نقض المعاهدة بين بنى قريظة وبين المسلمين بما كان قد عاهد عليه كعب بن أسد بل وفى بعهده وانضم الى أبناء جلدته ودخل معهم الحصن حيث استمروا محصورين خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار

ولسنا نعلم اذا كان قد حدثت مناوشات بين الفريقين أثناء هذه المدة أم لم تحدث

لكن يظهر أن بنى قريظة كانوا يميلون الى الهدوء والسلم لانهم كانوا رجال فلاحة وزراعة فلم يكونوا فى القوة والبطش والحماس الحربى بالدرجة التى كان عليها بنو قينقاع وبنو النضير ومما يؤيد ذلك أن بنى النضير كانوا يدفعون الدية كاملة

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٧٤
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٨٣

بخلاف بنى قريظة الذين كانوا يدفعون نصفها فقط [١]

من أجل ذلك كان العرب ينظرون الى بنى قريظة بعين غير التى كانوا ينظرون بها الى غيرهم من البطون اليهودية الاخرى

وليس معنى هـذا أن بنى قريظة لم تكن لديهم أية كفاءة حربية بل معناه انهم كانوا أقل من البطون الاخرى فى ذلك ومع هذا أبلوا بلاء حسنا فى يوم بعاث وأبدوا من الشجاعة وقوة العزيمة ما يستحق الاحترام وأيضا فانهم قد منعوا حصنهم خمسا وعشرين ليلة ولم ينزلوا الا حين أيقنوا بالهلاك

على أن الواقدى يصرح بانه حدث قتال بين اليهود و بين المسلمين أثنـاء الحصار حيث كان الفريقان يترامیان بالنبـل والحجارة [٢] كما يذكر ابن هشام أن بعض الانصار من الخزرج و بنى حارثة قتلوا فى هذه المقاتلة الضعيفة [٣] ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام مرة واحدة طول مدة الحصـار لان عدد المسلمين كان يربو على الآلاف بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز سبعمائة الا قليلا

ولما أيقنوا أن مقاومة جيش الانصار لا تفيدهم فتيلا وأنهم سوف يقعون فى قبضتهم مهما طال الزمن بعثوا الى الرسول أن ابعث الينا أبا لبابة لنستشيره فى أمرنا فأرسله الرسول اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش اليـه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم وقالوا له يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده الى حلقه انه الذبح وقال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت رسول الله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله حتى ارتبط فى المسجد الى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكانى هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لا أطأ بنى قريظة أبدا ولا أرى فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً . . . . واقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه

---

(١) الواقدى ص ٢١٢

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٠٤

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٠٤

امرأته فى كل وقت صـلاة فتحله للصـلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع الى أن أطلقه النبى[١]

ويظهر مما جاء فى كتاب الواقدى أن بنى قريظة قبلت أن تنزل على حكم الرسول لأنهم اعتقدوا حق الاعتقاد أن الأنصار يعاملونهم كما عاملوا بنى قينقاع والنضير[٢] وربما كان هذا هو سبب خيانة أبى لبابة اذ أشار الى العنق تلميحاً الى الحـكم الذى سينفذ فى بنى قريظة بعد خضوعهم

وكان بنو الأوس يعتقدون كما اعتقد بنو قريظة فى نتيجة حكم الرسول فانهم « لما أصبحوا نزل اليهود على حكم رسول الله فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله انهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى اخواننا بالأمس ما قدعلمت فقـال الرسول ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم قالوا بلى قال فذاك الى سـعد بن معاذ . . . . ثم حكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . . .[٣]

ولا شك أن اليهود لم يكونوا ينظرون الى هـذه الخيانة من حلفائهم بنى الأوس ولا الى غدر سعد بن معاذ بهم ولم ينجهم كما نجى عبد الله ابن أبى حلفاءه من بنى قينقاع . . .[٤]

وكان بنو قريظة طول الليـل قبل اعدامهم يقرأون فى كتاب الزبور ويتناقشون فى شؤون الدين الاسرائيـلى حيث اتفقوا على أن ينصروه الى آخر رمق من الحياة[٥]

أما تنفيذ حكم الاعدام فى رجال بنى قريظة فقد نعلم أن الرسول خرج الى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث اليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٨٩
(٢) الواقدى ٢١٣
(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٩٢ — حديث البخارى ج ٢ ص ٢٠٩
(٤) ابن هشام ج ٣ ص ٨١
(٥) الواقدى ص ٢١٦

يخرج بهم اليهم ارسالا وفيهم حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة والمكثر لهم يقول تسعمائة ولما أتى بحيي بن أخطب وعليه حلة فقاحية ( ضرب من الوشي ) قد شقها من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها أحد فلما نظر الى رسول الله قال أما والله ما لمت نفسي فى عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل ثم جلس فضربت عنقه . . . (١)

وقد اقترح كعب بن أسد زعيم بنى قريظة على أبناء جلدته قبل خروجهم من آطامهم أن يعتنقوا الاسلام « فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره (٢)

هذه الجمل تدل على رسوخ الديانة فى نفوس بنى قريظة وانهم ما كانوا ليعبأوا بالموت فى سبيل التمسك بدينهم والمحافظة على عقائدهم

وقد قلنا إن بنى قريظة أظهروا العجز فى الشؤون الحربية بالنسبة للبطون الأخرى ويتضح ذلك من حديث لابن هشام اذ « قال كعب بن أسد لقومه اذا أبيتم على هذه ( الدخول فى الاسلام ) فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبينهم فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وان نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم قال فان أبيتم على هذه فان الليلة ليلة السبت وانه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة قالوا نفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يكن ممن كان قبلنا الا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ قل ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما . . . . (٣)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٩٢
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٨٨
(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٨٨

وقد اشترك الأوس فى قتل حلفائهم فانه لما شرعت « الخزرج تضرب أعناقهم و يسرهم ذلك فنظر رسول الله الى الأوس فلم ير ذلك فيهم فظن أن ذلك للحلف الذى بين الأوس و بين بنى قريظة وقال ليضرب فلان وليذفف فلان . . . »(١)

وقد أظهر بعض اليهود فى نكبتهم هذه من الشجاعة ما يستوقف النظر فمن ذلك ما حدث للزبير مع أحد الانصار ، ذلك « أن الزبير كان قد منّ على ثابت ابن قيس فى يوم بعاث أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال يا عبد الرحمن هل تعرفنى قال وهل يجهل مثلى مثلك قال انى قد أردت أن أجزيك بيدك عندى قال ان الكريم يجزى الكريم ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله فقال يا رسول الله انه قد كانت للزبير على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لى دمه فقال رسول الله هو لك فأتاه فقال ان رسول الله قد وهب لى دمك فهو لك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة قال فأتى ثابت رسول الله فقال بأبى أنت وأمى يا رسول الله هب لى امرأته وولده قال هم لك قال فأتاه فقال قد وهب لى رسول الله أهلك و ولدك فهم لك قال أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله فقال يا رسول الله ماله قال هو لك فأتاه ثابت فقال قد أعطانى رسول الله مالك فهو لك قال أى ثابت ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل سيد الحاضر والبادى حيي بن أخطب قال قتل قال فما فعل مقدمتنا اذا شددنا وحاميتنا اذا فررنا عزال بن سموءل قال قتل قال فما فعل المجلسان يعنى بنى كعب بن قريظة و بنى عمرو بن قريظة قال ذهبوا وقتلوا قال فانى أسألك يا ثابت بيدى عندك الا ألحقتنى بالقوم فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٤٥

لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الاحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه . . .[١]

وكان المسلمون لا يقتلون فى غزواتهم النساء والذرارى وكل من لا ينبت من الرجال[٢] لكن فى هـذه الغزوة قتلت امرأة واحدة وقد انطلقوا بها للقتل وعلى ثغرها علامة الحبور والابتهاج حتى قالت عائشـة زوج الرسول : فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل[٣]

وقد نجى فى ذلك اليوم أربعة من اليهود لم يقتـلوا لأنهم اعتنقوا الاسلام فأقاموا على نسائهم وذراريهم وأملاكهم وقد بقى ثلاثة منهم فى المدينة أما رابعهم فقد خرج على وجهه من يثرب ليلة اسلامه ولم يدر أحد الى أين ذهب[٤]

ولم يكن الثلاثة الذين أسلموا من بنى قريظة أو من بنى النضير بل كانوا من بنى هدل وهم بطن من البطون العربية التى تهودت ولم يكن عدد افرادها المتهودين كبيرا فى يثرب

ومهما يكن من شىء فقد قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود فى يثرب وقد كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والخزرج منذ الساعة الأولى لمجاورتهم لهم فى يثرب وقد بذلت فى هذا السبيل جهودا عظيمة فى فترات مختلفة ولم توفق حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم واطماعهم السياسية فى وقت كانت خامدة فيه تلك الآمال

وقد طرأ تغيير عظيم على يثرب بعد خروج اليهود منها اذ تدهورت شئونها التجارية والصناعية تدهوراً شديداً ولو لم يكن بهذه المدينة ضريح الرسول ولو لم تكن عاصمة الدولة الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين لمـا كان ليثرب شأن

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٩٥ — الواقدى ص ٢١٩
(٢) حديث البخارى ج ٢ ص ٢٥١
(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٩٤
(٤) ابن هشام ج ٣ ص ٩٠

يذكر بعد تلك الحوادث فى الجزيرة العربية

وقد اضمحل شأن هذه المدينة بعد عصر الخلفاء الراشدين ولم تعد اليها مكانتها القديمة من الوجهة التجارية والصناعية

هذا ما يميل اليه المستشرقون وقد يكون من الصعب تفنيد هذا الرأى وتجريده من الصحة على أن هناك نقطة جوهرية يجب أن نتنبه لها ونحن نبحث أسباب الضعف الذى طرأ على يثرب بعد أن محيت منها سلطة اليهود

فقد يظهر لكل باحث فى تاريخ المسلمين بعد الخندق وغزوة بنى قريظة ظاهرة جديدة فى منطقة يثرب أولا وفى الحجاز كله بعد زمن قصير : هى أن مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة أهملت اهمالا شنيعاً وأخذ أفراد البطون وزعماؤها يتجهون نحو الشؤون الحربية التى شغلت العرب بما جلبت لهم من المغانم وبما مكنت لهم فيما يملك اعداء الاسلام فى الجزيرة العربية

وبعد غزوة تبوك أخذت الجيوش الاسلامية تَغْمُرُ سورية والعراق ومصر وأفريقيا الشمالية فلم تبق للاعمال القديمة المعروفة فى الجاهلية قيمة كبيرة فى كسب الرزق واحراز المال والسلاح اذ كانت ثمار الأرض من بر أو تمر قليلة جداً بالنسبة لما تغله الفتوح من مختلف الثمرات

وكذلك أهمل العرب أعمالهم الزراعية وتركوها بأيدى العبيد الذين جلبوهم من الامم المغلوبة

ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على العنصر العربى وحده بل نجدها شاملة لكل الامم فى طور الانتقال من الفقر والبداوة الى الملك والاستعمار فقد نعلم أن الامة اليونانية أخذت بعد خروج الاسكندر الاكبر لفتح ممالك الشرق تنحط فى الزراعة والتجارة وتهمل ما فى بلادها من مصادر الثروة طمعا فى جلب ما فى الممالك الشرقيـة من المغانم الكثيرة والى مثـل هذه الظاهرة يشير من كتب فى

تاريخ روما بعد قهرها لامم العالم القديم

أما الاهمال الذى وقع فى منطقة يثرب فقد ظهر أثره بعد زمن قصير فى مكة اذ تدهورت شؤونها التجارية ولم نعد نسمع فى التاريخ الاسلامى شيأ عن قوافل مكة الى يثرب والشام واليمن لان عشائر قريش وزعماءها وجدوا أرزاقهم فيما انبسط لهم فى الممالك الاسلامية ولولا الكعبة بمكة لظلت كسائر مدن الجزيرة التى لم ترتق ولم تعظم بظهور الاسلام بل أصبحت خالية من أهلها العرب الذين طوحت بهم مطامع الفتوح

على أن الدكتور طه حسين يرى أن انحطاط يثرب والحجاز عامة من الوجهة المادية لم يكن ناشئا عن اضعاف اليهود واجلائهم وانما كان نتيجة لازمة لانتقال النشاط العربى الى جهة أخرى خارج البلاد العربيـة وهو يرى أن اليهود لو أنهم ظلوا مسالمين للنبى والمسلمين حتى تمت الفتوح لبخلوا بنشاطهم الطبيعى على هذه الارض الحجازية التى لم يستعمروها الا مضطرين ولالتمسوا لانفسهم مستعمرات أخرى أخصب وأجلب للنفع فى العراق والشام أو مصر أو غيرها من البلاد التى فتحت على المسلمين

أما النتيجة المادية لمحو السلطة اليهودية فى يثرب فواضحة فقد قسم الرسول المغانم من الذهب والفضة ومن المنازل والمزارع على المهاجرين ووضع تحت يد أنصاره زعامة الآطام التى أخذت من اليهود وما بقى من الأموال بعد هدايا المهاجرين والانصار حفظ فى بيت المال للدولة الفتية التى ظهرت بمظهر القوة بعد غزوة بنى قريظة وكانت فى حاجة شـديدة الى الأموال التى تساعد على تنفيذ المشروعات المهمة فى الحجاز وأطراف الشام

أما تأثير هذا الفوز المبين فى القبائل العربية الوثنية من قريش وغيرها فسنبينه فيما بعد . . .

وأما المنافقون فقد خفت صوتهـم بعد يوم قريظة ولم نعد نسمع لهم أعمالا أو

أقوالا تناقض ارادة النبي وأصحابه كما كان يفهم ذلك من قبل

أما النساء والذرارى فقد بعث بهم الرسول الى نجد فابتاع بهم خيلا وسلاحاً وقد اصطفى لنفسه من نساء قريظة ريحانة بنت زيد فكانت عنده حتى توفيت فى حياته ويقول صاحب كتاب الطبقات إن الرسول ضرب عليها الحجاب وكان معجباً بها وكانت لا تسأله الا أعطاها ولقد قيل لها لو كنت سألت رسول الله بنى قريظة لأعتقهم . . . وكانت امرأة جميلة وسيمة . . . فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها تطليقة وهى فى موضعها لم تبرح فشق عليها وأكثرت البكاء فدخل عليها رسول الله وهى على تلك الحال فراجعها فكانت عنده حتى ماتت عنده . . . (١)

وفى سورة الأحزاب آيات تتعلق بغزوة بنى قريظة« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا »(٢)

وكذلك قال العرب شعراً كثيراً فى غزوة قريظة وغزوة الخندق وهو شعر لم يوجد له نظير فى الغزوات الاخرى عند ابن هشام وهو يدل على ما كان لتلك الغزوة من وقع شديد فى النفوس

ومما قاله جبل بن جوال الثعلبي يبكى بنى قريظة :

ألا يا سعد سعد بنى معاذ — لما لقيت قريظة والنضير
لعمرك ان سعد بنى معاذ — غداة تحملوا لهو الصبور
فأما الخزرجي أبو حباب — فقال لقينقاع لا تسيروا

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٨ ص ٩٣

(٢) سورة الاحزاب آية ٢٥ — ٢٧

وبدلت الموالى من حضير ... أسـيد والدوائر قد تدور
وأقفرت البويرة من سـلام ... وسعية بن أخطب فهى بور
وقد كانوا ببلدتهـم ثقالا ... كما ثقلت بحيطان الصخور
فان يهلك أبو حكم سـلام ... فلا رث السلاح ولا دثور
وكل الـكاهنين وكان فيهم ... مع اللين الخضارمة الصقور
وجدنا المجد قد نبتوا عليه ... بمجد لا تغيبـه البـدور
أقيموا يا سراة الأوس منها ... كأنكم من المخزاة عور
تركتم قدركم لا شيء فيهـا ... وقدر القوم حامية تفور

# الباب الثامن

## غزوة خيبر

الاسباب التى حملت الرسول على محاربة أهل خيبر — أهمية معاهدة الرسول مع قريش قبل هذه الغزوة من الوجهة السياسية والحربية — مراقبة قبائل الحجاز لغزو خيبر — غدر بنى غطفان بحلفائهم أهل خيبر — النضال حول آطام خيبر — سلام بن مشكم وبقية زعماء خيبر — المناطق الحربيــة فى بلاد خيبر — حصون خيبر المنيعة — الحاح اليهود فى طلب الصلح — لمــاذا لم يجل الرسول أهل خيبر ؟ — رأى ابن هشام — آراء المستشرقين — مغانم خيبر — صحف التوراة والرسول — زواج النبى بصفية بنت حيى بن أخطب — محاولة زينب ابنة الحارث الانتقام من الرسول — لماذا تزوج الرسول بصفية بنت حيى ؟ — خضوع يهود وادى القرى وفدك وتيماء للرسول — نتيجة غزوة خيبر

ارتعدت فرائص يهود خيبر لمــا وصل اليهم ما حل باخوانهم فى يثرب من التنكيل والتقتيل وأوجسوا خيفــة من نقمة المسلمين عليهم من جراء تحريضهم لبنى قريش وغطفان مع حيى بن أخطب على محاربة الانصار

وقد صرح ســلام بن مشكم لزعماء خيبر بان خطرا يتهدد كيان اليهود فى الحجاز وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا الى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء ثم يزحفوا على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية فى هــذه الغزوة ولكن بعض الزعماء عارضه فى هذا الرأى[1] وكانوا فى هذه الاثناء يرسلون الوفود بالاموال الى المدينة لفداء عدد عظيم من النساء والذرارى . .[2]

(١) الواقدى ص ٢٢٤

(٢) الواقدى ص ٢٢٩

وقد علم الرسول بما يدور فى خلد يهود خيبر فأخذ يتهيأ لقتالهم ولكنه أجله الى أجل قصير لاسباب سياسية وأخـذ الانصار يرسلون الوفود لقتل زعماء خيبر كمقدمات للغزوة

وكان من تلك الضحايا زعيمان كبيرا النفوذ والسيطرة فى خيبر وهما سلام بن أبى الحقيق واليسير بن رزام

أما الاول فقد قتـل غيلة على فراشـه فى خيبر بواسطة خمسة من رجال بنى الخزرج قصـدوا خيبر فاحتالوا على امرأة سـلام وقالوا لها إنهم يلتمسون الميرة ففتحت لهم الابواب فهجموا على سلام وطعنوه بسيوفهم وهو على فراشه لا يدرى بهم (١)

ونلاحظ أن هذا القتل لم يكن بعد غزوة قريظة مباشرة بل جرى قبيل غزوة خيبر وكان أبو الحقيق من أصحاب العقول الراجحة فاراد المسلمون أن يتخلصوا منه قبل أن تدور المعارك بينهم و بين اليهود فى ناحية خيبر

وأما الزعيم الثانى وهو اليسير بن رزام فقد كان يجتمع ببنى غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود فى حلة دخول أهل خيبر فى حرب مع المسلمين « فبعث اليه الرسول عبد الله بن رواحة فى نفر من أصحابه فقدموا الى اليسير بن رزام بخيبر وكلموه وقالوا له انك إن قدمت على الرسول استعملك وأكرمك فلم يزالوا به حتى اذا كان بالقرقرة من خيبر على ستة أميال ندم اليسير على مسيره ففطن له عبد الله بن أنس فاقتحم به ثم ضربه بالسيف فقطع رجله وضربه اليسير بمخراش فى يده من شوحط فأمّه ومال كل رجل من الانصار على صاحبه من اليهود فقتله الا رجلا واحدا أفلت على رجليه . . . (٢)

وقد يدل هذا على صحة ما رواه الواقدى من أن بعض زعماء خيبر لم يوافقوا

---

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ١٢٢

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٤٠ — تاريخ الخميس جزء ٢ ص ١٦

على رأى سلام بن مشكم من محاربة المسلمين وأن اليسير بن رزام قد خرج فعلا مع عبد الله بن رواحة يقصد المدينة ليدخل فى حلف مع الرسول ليمحو من قلوب الانصار الاستياء من اشتراك بعض زعماء خيبر والنضير فى يوم الخندق وأما عبد الله بن رواحة فأنه لم يأت الى خيبر لعقد معاهدات بل لتنفيذ خطة سياسية خطيرة كان من شأنها اضعاف اليهود بقتل بعض زعمائهم

وقد اعتبر مؤرخو العرب قتل اليسير بن رزام من الاعمال السياسية الجليلة فقد وضعوا له بابا خاصا كأنه غزوة من الغزوات

أما ابن هشام فقد وضعها فى أخبار الانصار قبيل غزوة خيبر ولكى يتمكن الرسول من محاربة أهل خيبر دون أن يكون عرضة لخطر من جهة أخرى فقد توجه الى مكة فى ذى القعدة من السنة السادسة وتصالح مع قريش

وقد جاء ابن هشام بنص المعاهدة : هـذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليـه رده عليـه ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا سلاسل ولا أغلال وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . . . (١)

أما بعد عقد الرسول هـذه الهدنه فقد أصبح آمناً شر قريش وصارت له الحرية فى أن يسير حيث شاء فأمر جموع المسلمين أن يتجهزوا لغزو خيبر وخرج بهم فى المحرم من السنة السابعة قاصداً خيبر وهى على ثلاثة أيام من المدينة

وأما الاسباب التى حملت قريشاً على عقد الهدنة فهى أن قريشاً كانت فى حاجة شديدة الى هدنة مع الرسول لما ظهر فى مكة من الضائقة الاقتصادية بعد يوم قريظة ولمـا كانت تخشى على قوافلها من غارات المسلمين ولما كانت تتوقعه

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ١٥٩

من انتقام الرسول بعد أن حار بته وكادت له فى بدر وأحد والخندق

ولما سمع القرشيون بمسير النبى الى مكة خرجوا معهم العوذ المطافيل وقد لبسوا جلود النمور(١) ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله أن لا يدخلها المسلمون عنوة أما الرسول فلم يأت للقتال ولكنه جاء لزيارة البيت الحرام

ولا شك فى أنه قد ظهرت للنبى بعد يوم قريظة سياسة جديدة ازاء قريش فقــد أراد أن يأخذهم بالرفق ولكن أى رفق ؟ انه رفق القوى الذى يريد أن يصل الى غرضه بدون أن يحكم السيف وليس رفقه هنا كرفقه بمكة يوم كان قليل الانصار

ويحدثنــا ابن اسحق أن الرسول قال : لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها (٢)

فلما وثقت قريش أن الرسول يميل الى مهادنتها لم تتردد فى القبول

أما نص عقد الهدنة فاننــا نعتقد أنه كان أطول مما وصل الينا فى كتاب السيرة فقد جرت مفاوضات كثيرة قبــل الهدنة ولم تكتف قريش بأقوال مبهمة وانما طلبت شروطاً واضحة تضمن لمتاجرها وقوافلها الأمان

والذى يرجع الى آيات سورة الفتح التى يشرحها ابن إسحق يرى أن الاخبار القليلة التى وصلت اليه عن يوم الحديبية يرجع الفضل فيها الى الآيات أكثر من الروايات التى لم يبق منها لعهده الا القليل

أما أنصار الرسول فقد غضبوا وثاروا اذ اعتقدوا أن شروط الهدنة فى صالح قريش وكانوا يودون أن تذعن لحــكم الرسول بلا شرط ولا قيد وفى هذه الهدنة

---

(١) قيل العوذ جمع عائذ وهى الناقة التى معها ولدها يريد أنهم خرجوا بذوات الالبان من الابل ليتزودوا ألبانها ولا يرجعوا حتى يناجزوا محمداً وأصحابه فى زعمهم . . . ( الروض الانف جزء ٣ ص ٢٦٦ )

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٥٢

قال عمر بن الخطاب كلمته المأثورة « علام نعطى الدنيّة فى ديننا »[١]

وبالرغم من ثورة المسلمين على شروط الهدنة فقد كان فى قبولها من الرسول دلالة كبيرة على بصره بالعواقب وعلمه بالسياسة الدقيقة ويؤيد ذلك ما قاله الزهرى فما فتح فى الاسلام فتح قبل يوم الحديبية كان أعظم منه انما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وآمن الناس كلهم بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد فى الاسلام يعقل شيئاً الا دخل فيه ولقد دخل فى تينك السنتين مثل ما كان فى الاسلام قبل ذلك أو أكثر . . . [٢]

أما الآيات التى تتعلق بيوم الحديبية فهى تحتوى على سورة الفتح بأجمعها « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . . إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيما . . . وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدىَ معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . . »

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٥٨
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٦٤

وتتلخص الأسباب التى حملت النبى على غزو خيبر فيما يأتى :

(١) ثأره من يهود خيبر لما فعلوه من تحريض قريش وغطفان على محاربة المسلمين

(٢) كانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف بأساً وأوفرها مالا وسلاحا ولم يكن هناك أى أمل فى أن يعتنقوا الدين الاسلامى بعد ما اثبتت التجارب السابقة مع يهود يثرب أن اليهود لن يدخلوا فى الاسلام ، ولما كان الغرض الذى يرمى اليه الرسول انما هو جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد كان حتما عليه فى هذه الحال أن يقضى على يهود خيبر حتى لا يكونوا حجر عثرة فى سبيل تحقيق ذلك الغرض

(٣) لم يجد النبى قوة تقف فى سبيل نشر دينه إلا قوتين اثنتين قوة قريش وقوة اليهود لذلك وضع نصب عينيه القضاء على هاتين القوتين ليخلو له الجو ويتمكن من نشر دعوته . أما بقية القبائل الحجازية فلم تكن من القوة والخطورة بمثل ما كانت قريش واليهود

ويظهر أن صاحب السيرة لم تصله أخبار كثيرة عن غزوة خيبر لذلك لجأ مؤرخو العرب — وقد كانت لهم سيرة ابن هشام الينبوع الذى يستقون منه جميعاً — الى الأخبار والروايات المضطربة فجاءت بعض رواياتهم مختلطة بكثير من العجائب والغرائب كما سنوضح ذلك فيما بعد

ومما لا شك فيه أن غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم فى تاريخ الفتوح الاسلامية اذ كانت كل قبائل الحجاز تراقب نتيجتها باهتمام وتنظم شؤونها على حسب ما كان يتراءى لها من نتيجة صليل السيوف بين الانصار واليهود وقد كان أعداء الرسول الكثيرون فى بادية العرب وحاضرتها يعلقون آمالا كبيرة على تلك الغزوة

وقد انقسم أهل مكة قسمين : طائفة منهم ترجح أن النصر سيكون حليف

اليهود وطائفـة ترى أنه سيكون من نصيب المسلمين وكثيراً ما تراهن بعض الأفراد من كلتا الطائفتين بسبب ذلك [١]

وقد كان الاهتمام بهذه الغزوة شديداً جداً فى مكة أثنـاء القتال حول آطام خيبر حتى أن الحجاج بن علاط لما ذهب الى مكة بعـد ان انتهى الحرب بفوز المسلمين خدع أهلها وقال لهم « عندى من الخبر ما يسركم : هزم محمد هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وأسر محمد أسراً وقال أهل خيبر لا نقتله حتى نبعث به الى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم فابتهج أهل مكة لهذا الخبر ودخلوا الى الكعبة ليقدموا الضحايا الى اللات والعزى . . [٢]

وأما يهود خيبر فقد أرسلوا الى غطفان يستمدونهم لانهم كانوا من حلفائهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر ان غلبوا على المسلمين فقبلوا [٣]

ولكن بطون غطفان التى اشتهرت بغدرها يوم الخندق أخلت بيهود خيبر أيضاً اذ بعد أن تهيأت غطفان للقتال وظهرت طلائع الجيش الاسلامى دب الخوف فى قلوبهم واستولى عليهم الفزع فرجعوا على أعقابهم وأقاموا فى أهليهم وخلوا بين الرسول و بين خيبر [٤]

ولكن يظهر أن غطفان لم ترجع على اعقابها من جراء الخوف من طلائع الجيش الاسلامى كما يقول ابن هشام لأن لدينا رواية أخرى تقول إن الرسول قد بعث الى بنى فزارة من بنى غطفان وكانوا قد قدموا لمحاربة المسلمين مع يهود خيبر يطلب منهم أن « لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خيبر شيئاً سماه لهم فأبوا عليه وقالوا حلفاؤنا وجيراننا فلما افتتح الله خيبر أتاه من كان هناك

---

(١) الواقدى ص ٢٨٩

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦

(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٤٨

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ١٧١

من بنى فزارة فقالوا الذى وعدتنا فقال لكم ذو الرقيبة لجبل من جبال خيبر[١]

وقد جاءت هذه الرواية فى كتاب المغازى للواقدى حيث يقول : إن عيينة زعيم بنى فزارة قد غضب ولم يقبل ذا الرقيبة لان أرضها لم تكن خصبة[٢]

أما اليهود فانهم بعد أن شاوروا زعيمهم سلام بن مشكم « أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصن الوطيح والسلالم وأدخلوا ذخائرهم فى حصن ناعم وجمع المقاتلة وأهل الحرب فى حصن نطاة وسلام بن مشكم مع أنه كان مريضاً جاء ودخل نطاة معهم وحرض الناس على الحرب »[٣]

وكانت حصون خيبر منيعة على رؤوس الجبال وكان رجالها مدربين قد مارسوا القتال والنضال وكانوا أصحاب سلاح كثير واستعملوا آلات الهدم فى رد عادية المغيرين عن آطامهم . .[٤]

وكان الرسول قد جاء بخيار الانصار مسلحين بكل ما غنموه فى الغزوات السابقة وكذلك انضم اليهم كثيرون من قبائل العرب البادية طمعاً فى أموال اليهود

وكان من نتائج أول معركة بعد أن التقى الجمعان حول حصن نطاة أن وصل عدد جرحى المسلمين الى ٥٠[٥]

وعلى العموم فانه من المتعذر معرفة عدد القتلى فى هذه المعارك لان مؤرخى العرب — كما قلنا — لم تصلهم أخبار كثيرة عن غزوة خيبر وفضلا عن ذلك فانه من المعروف أن المؤرخين فى التاريخ العام لا يذكرون عدد القتلى والجرحى من جهاتهم بينما يبالغون فى عدد القتلى والجرحى من العدو

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٠
(٢) الواقدى ص ٢٧٩
(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٠
(٤) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٠
(٥) الواقدى ص ٢٨٦

وقد نكب اليهود فى أول عهـد الغزوة بنكبة شديدة بسبب وفاة زعيمهم سلام بن مشكم فى حصن نطاة وكان المسلمون يحاصرونه أثناء ذلك(١)

وقد وجد فى هـذا الحصن أولاد بنى قمة وكانوا أصحاب ثروة طائلة فى خيبر حتى قالت عائشة زوج الرسول عن هـذه الاسرة : ما شبع رسول الله من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بنى قمة (٢)

وانتقلت القيادة بعـد وفاة سلام بن مشكم الى الحارث أبى زينب الذى خرج بعد ذلك من حصن ناعم لمنازلة الجيش الاسلامى فانهزم أمام بنى الخزرج الذين بادروا لقتاله واضطروه الى أن يرجع الى الحصن ثم تجمع جماعة من اليهود رابطى الجأش وهجموا على الانصار حتى وصلوا الى حامل الراية بالقرب من الرسول . فبعث الرسول أبا بكر الصديق براية الى الحصن فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ثم بعث فى الغد عمر بن الخطاب ورجع ولم يكن فتح وقد جهد فدعا الرسول عليا وهو أرمد فتفل فى عينه ثم قال خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه من يده فتناول علىّ باباً كان عند الحصن فتترس به فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليـه ثم ألقاه من يده حين فرغ . فلقد كان فى نفر ثمانية اجتهدوا على أن يقلبوا الباب فلم يقلبوه(٣)

أما صاحب تاريخ الخميس فيسرد هـذه الاخبار ويلاحظ أن الذين أرادوا خلع باب الحصن كانوا سبعين ولم يحركوه الا بعد جهد . . . وقد حمله على بن أبى طالب على ظهره وجعله قنطرة دخل عليهـا المسلمون الحصن ثم ألقى ذلك الباب وراء ظهره ثمانين شبرا (٤)

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٠
(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٣
(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٦
(٤) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٦

وفى أثناء هجوم الانصار على حصن ناعم قتل البطل الخيبرى مرحب بعد مبارزة عنيفة مع محمد بن مسلمة [١]

وتذكرنا هذه المبارزة بحسب رواية صاحب الخميس بالروايات الخرافية عند قدماء الاغريق

والذى يمكننا أن نستنتجه من هذه الروايات أن معارك عنيفة دارت حول حصن ناعم دون أن يتغلب المسلمون على اليهود فأمر الرسول أنصاره أن يقطعوا أربعمائة من نخيل اليهود ليدخل الرعب فى نفوسهم [٢]

وقدنصح أبو بكر الصديق الرسول بان يمتنع عن قطع باقى الاشجار ففعل [٣] وسقط حصن ناعم بعد أن قتل قائده الحارث أبو زينب [٤]

وكان حصن ناعم من الحصون المنيعة فى منطقة نطاة التى كانت بها آطام تعرف بهذا الاسم

وكانت بلاد خيبر منقسمة الى ثلاث مناطق حربية الاولى نطاة والثانية الشق والثالثة الكتيبة

و بعد أن سقط حصن ناعم توجه المسلمون الى حصن الصعب بن معاذ وزحفوا عليه ففرق اليهود شملهم فاضطر الرسول أن يزجر رجاله ويحمسهم فتقدموا واقتحموا السور ولكنهم وجدوا بعده سورا آخر داخليا فأنزلوه بعد جهد شديد وارتد اليهود الى حصن آخر هو حصن الزبير فى نفس منطقة نطاة [٥]

وكان مقاتلة المسلمين قبل فتح حصن الصعب بن معاذ فى حالة ضنك شديد لقلة المؤن عندهم وكثرة الجيوش فتوجهت جماعة منها الى الرسول تشكو اليه

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٥

(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥١

(٣) الواقدى ص ٢٦٨

(٤) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٥ — الواقدى ص ٢٧١

(٥) الواقدى ص ٢٧٤

وتطلب منه ما تسد به رمقها . فلم يجد الرسول شيأ يعطيهم اياه فقال اللهم انك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدى شيء أعطيهم اياه[١]

وقد أذن الرسول للانصار فى أكل لحوم الخيل[٢]

وحدث أثناء ذلك أن أحد المسلمين اغتنم شاتين اغتنمها بعد أن دخلت أولاهما الحصن فحضنهما تحت يديه وأقبل بهما الى الرسول فذبحوهما وأكلوهما وكان هذا الرجل اذا حدث هذا الحديث بكى[٣]

لكن بعدفتح حصن الصعب بن معاذ وجد المسلمون طعاماً وودكا كثيرا[٤]

ويظهر لى أن معاذاً هذا لم يكن علما لشخص كما تشعر بذلك تسمية الحصن به بل تعرف الصخرة العالية فى اللغة العبرية باسم معاذ

وقد كان هذا الحصن على صخرة عالية كما ذكر ذلك صاحب تاريخ الخميس[٥]

أما حصن الزبير فقد كان منيعاً جداً حتى ان المسلمين لم يستطيعوا فتحه على عظم ما بذلوا من جهود الا بعد أن جاءهم يهودى فغدر باخوانه فنصح لهم بقطع الماء عن المحصورين وكان هذا الماء يجرى الى القلعة من تحت الأرض فاضطر اليهود الى أن يخرجوا منه . وبعد مبارزة عنيفة انهزموا وفروا الى أبناء جلدتهم فى منطقة آطام الشق[٦]

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٣

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٢

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٧

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٤

(٥) على أن تسمية الصخرة بمعاذ فى العبرية لا يمنع من أن يكون أبا لرجل مسمى بمعاذ أيضاً لان معاذ فى اللغة العربيـة الملجأ وهو يطلق على المصدر والزمان والمكان كما فى التاج ص ٥٧٠ ج ٢ وقد سمى العرب معاذ تشبيها للشخص بالملجأ الذى يلجأ اليه الخائف قال صاحب القاموس ( وسموا عائذاً وعائذة ومعاذاً ) ص ٣٦٩ ج ١

(٦) الواقدى ص ٢٧٦

ولما أصبحت آطام منطقة النطاة فى أيدى الغزاة اتجهوا الى اقليم الشق وشرعوا يحاصرون قلعة أبى وهى على جبل شمران

ولسنا نعرف مما جرى أثناء حصار هذا الحصن أكثر من انه حدثت مبارزات بين أفراد من اليهود والمسلمين انتهت بفتح القلعة

ترك الرسول بعد ذلك بقية حصون منطقة الشق فى أيدى اليهود لقلة أهميتها من الوجهة العسكرية وقصد أرض الكتيبة حيث احتشد اليهود فى حصن القموص الذى تجمعت فيه جموع المنهزمين والفارين من الحصون الخيبرية الأخرى

وكانت القموص تحت قيادة بعض الأشراف من بنى الحقيق وكان فى هذا الحصن نساء هذه الأسرة وقد كان لهذا الحصن اسم آخر وهو نزار ومعناه باللغة العبرية التاج ( נזר )

وقد اختلف بعض مؤرخى العرب فى أخبار حصنى ناعم والقموص فابن هشام والواقدى يقصان بعض الأخبار عن ناعم فى حين يأتى صاحب تاريخ الخميس بنفس هذه الأخبار على أنها حدثت أثناء الحصار حول القموص(١)

على أننا لا نعلق أهمية كبيرة على أخبار كهذه لا تجدى المجادلة فيها فتيلا لأنها روايات خيالية أكثر منها حوادث حقيقية

استمر الحصار حول حصن القموص عشرين يوماً حيث انتهى بتمكين المسلمين من فتحه عنوة ووقع فى قبضتهم سبايا من النساء والذرارى فقسمها الرسول بين أنصاره واصطفى لنفسه منها صفية ابنة حيي بن أخطب

و بينما كانت الجيوش الاسلامية تحاصر الوطيح والسلالم فى اقليم الكتيبة طلب اليهود الصلح وسألوا الرسول أن يحقن دماءهم فأجابهم الى طلبهم وحقن دماءهم(٢)

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٥

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٩

وهنا نتساءل لماذا عامل الرسول يهود خيبر بغير المعاملة التى عامل بها يهود يثرب ؟

ويتلخص الجواب على هذا السؤال فى أن خيبر كانت واسعة الاطراف وفيها من الحدائق والمزارع والنخيل ما يحتاج للأيدى الكثيرة التى مارست أشغال الزراعة والفلاحة ولم يكن من العرب من مارس ذلك الا النزر القليل وفوق ذلك لم يرض الرسول أن يترك من أنصاره من يستوطن هذه الارض ويعمل بها لاحتياجه اليهم فى الاعمال الحربية ولم يكن فى الامكان ترك هذه الارض الخصبة بوراً لا تنتج زرعاً ولا ثمراً الا أن الدولة الاسلامية الناشئة كانت فى أشد الحاجة الى الاموال الكثيرة فلم يكن بد من الابقاء على اليهود ليعملوا فى هذه الارض وينتجوا منها الزرع والثمر ولذلك كانت شروط الصلح التى عقدت بين الطرفين فى مصلحة المسلمين أكثر منها فى جانب المغلوبين

هذا الى أن يهود خيبر لم يفعلوا ما يوغر صدر الرسول ويثير حقده عليهم كما فعل غيرهم وكل ما كان منهم لا يعدو اشتراك بعض زعماء بنى النضير اللاجئين الى يهود خيبر فى تحريض قريش وغطفان على المسلمين فى يوم الخندق فما دامت شوكة اليهود فى الحجاز قد انكسرت فايس ما يخشى من وجود يهود خيبر فى أراضيهم بل كان فى وجودهم مصلحة كبيرة حيث يستثمر مجهوداتهم فى الاعمال التجارية والزراعية للاكثار من واردات الحكومة الجديدة كما ذكرت آنفاً

ويرتاب بعض المستشرقين فى قول الواقدى ( إن المسلمين لم يتركوا ليهود خيبر سوى ثوب واحد لكل منهم وسوى نسائهم وذراريهم )[١]

ويؤيد المستشرقين فى ارتيابهم هذا أن الواقدى نفسه يقول فى نفس الصحيفة التى ذكر فيها ذلك إن اليهود قد جاءوا من منطقة الكتيبة لشراء غنيمة القموص، وفداء النساء والذرارى من أيدى الظافرين فمن أين جاءوا بما يشترون

(١) الواقدى ص ٢٧٧

به الغنائم ويفدون النساء والذرارى اذا لم يكن المسلمون تركوا لهم الا ثوباً واحداً لكل واحد منهم

والواقع أن الرسول خمس بلاد خيبر وقسمهـا على الأنصار وعلى أصحابه ونسائه بطريقـة الأسهم وأقام اليهود على أراضيها على أن يعطوا نصف ثمارها للمسلمين وكان رسول الله يبعث عبـد الله بن رواحة فيقسم ثمرها و يعدل عليهم فى الخرص(١)

وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين المغانم التى غنمها المسلمون فى غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبى بتسليمها لهم . . . (٢)

و يدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون الى النبى بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسـة ويذكرون بازاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب . م اذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بارجلهم وما فعـله المتعصبون من النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الاندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم و بين رسول الاسلام

وقد قلنـا إن الرسول قد اصطفى لنفسه صفية بنت حيى بن أخطب بعد أن قتل زوجها كنانة بن الربيع و يظهر أن بعض الانصار خافوا على النبى من هذا الزواج اذ « لمـا أعرس رسول الله بصفية بخيبر أو ببعض الطريق وكانت التى جملتها لرسول الله ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم ابنة ملحان فبنى بهـا رسول الله فى قبة له وبات أبو أيوب خالد متوشحاً سيفه يحرس رسول الله و يطوف

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٠ — ١٩٧
(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٠

بالقبة حتى أصبح رسول الله فلما رأى مكانه قال مالك يا أبا أيوب قال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر نخفتها عليك.... (١)

وقد كان المسلمون محقين فى خوفهم على الرسول وقيامهم على حراسته لأن يهود خيبر كانت نفوسهم قد امتلأت بالحقد على الانصار الذين فتحوا أمصارهم واقتسموا أموالهم وأخضعوهم لسلطانهم وهى غريزة بشرية لا يخلو منها أحد اذ ليس فى الناس من يقبل على نفسه الضيم والهوان فقد قتل يهود خيبر رجلا من المسلمين بعد أن رجعت جيوش الانصار الى المدينة (٢)

ويدل على مبلغ ما كان فى نفوس اليهود من الاستياء ما أقدمت عليه امرأة يهودية من عمل بالغ غاية القسوة اذ ارادت أن تنتقم لقومها « فاهدت زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية كانت مسمومة ووضعتها بين يدى الرسول فتناول الذراع فلاك منها فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله وأما بشر فاساغها وأما رسول الله فلفظها ثم قال ان هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ثم دعا بها فاعترفت فقال ما حملك على ذلك قالت بلغت من قومى ما لم يخف عليك فقلت ان كان ملكا استرحت منه وان كان نبياً فسيخبر فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من أكلته التى أكل . . (٣)

ولقد أثار هذا العمل سخطاً شديداً فى نفوس مؤرخى العرب على هذه الفتاة التى حاولت أن تغتال حياة الرسول بمثل هذه المكيدة

ولكن يجب ألا يغيب عن البال صعوبة اطمئنان فتاة الى الحياة بعد ان قتل أبوها وكان زعيما شريفاً ومات زوجها وكان قائداً ذا مجد تليد وفتاة فى

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٢
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٥
(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٩

مثل موقفها لا بد أن تسقط تحت سلطان الغضب وتصغى لوحى الانتقام لا سيما وهى مالكة له قادرة عليه

والمؤرخ الذى يلتفت الى هذه الاعتبارات كلها يلتمس لهذه المرأة بعض العذر فيما أقدمت عليه من عمل منكر

أما صفية بنت حيى بن أخطب فقد أقامت على الولاء والوفاء لزوجها الجديد وبقيت معه قرينة مخلصة الى أن انتقل الى جوار ربه

وقد اقتفى النبي بعمله هذا أثر الفاتحين العظماء حيث كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التى كانوا يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم (١)

ولقد كان بعض نساء الرسول يعاملن صفية بكبرياء وعظمة فكان ذلك يؤلمها ويبكيها فقال لها النبي : قولى لهن إنك ابنة هارون وكان عمك موسى رسول الله (٢)

ويحدثنا ابن سعد « أن نبى الله فى الوجع الذى توفى فيه اجتمع اليه نساؤه فقالت صفية بنت حيي أما والله يانبى الله لوددت أن الذى بك بى فغمزها أزواج النبي وأبصرهن رسول الله فقال مضمضن (٣) فيقلن من أى شيء يا نبى الله قال من تغامزكن بصاحبتكن والله انها لصادقة . . . (٤)

وقد توفيت صفية سنة اثنتين وخمسين فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ودفنت بالبقيع (٥)

وفى أثناء محاصرة المسلمين للوطيح والسلالم من آطام خيبر أرسل الرسول

---

(١) راجع حديث البخارى ج ١ ص ١٠٦ [ صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير لا تصلح الا لك . . . فأعتقها رسول الله ]

(٢) الواقدى ص ٢٧٩ — ابن سعد ج ٨ ص ٩١

(٣) أى أمسكن أفواهكن فقد تنجست

(٤) ابن سعد جزء ٨ ص ٩١

(٥) ابن سعد ج ٨ ص ٩٢

بعض جنوده الى فدك الواقعة شمال بلاد خيبر وكان قائد هذه البعثة محيصة بن مسعود « فدعا أهلها الى الاسلام ولما رأى أن لا ميل لهم فى الصلح وأرادوا أن يحاربوه جاءت اليهم أخبار خيبر فوقع فى قلوبهم خوف عظيم فأرسلوا جماعة من اليهود الى النبى حتى يصالحوه فبعد القيل والقال الكثير استقر الأمر على أن يعطوا النبى نصف أرض فدك ولهم نصفها فرضى النبى فصالحهم على ذلك[١]

. فكانت فدك خالصة للرسول لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب [٢] ولما فرغ الرسول من أمر خيبر تجهز للرحيل الى المدينة عن طريق وادى القرى فلما سمع أهلها جنود المسلمين تهيأوا للقتال وعرض عليهم الرسول الاسلام فأبوا عليه ذلك وقاتلوا ذلك اليوم الى الليل ثم تصالحوا وأقامهم النبى على أراضيهم وذراريهم وأموالهم

ولما وصل أمر خيبر وفدك ووادى القرى الى يهود تيماء خافوا وقبلوا الجزية [٣]

وقد سرد الواقدى حوادث مبارزات وقعت بين جماعات من يهود وادى القرى وجمهور من المسلمين[٤] رأيت ألا أنقلها لعدم أهميتها

* * *

وعلى كل حال فقد قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود السياسى فى البلاد الحجازية قضاء نهائياً. بعد أن قضوا عصوراً طويلة وهم يتمتعون به ويتفيأون ظلاله فأخذت حالهم الاقتصادية تتدهور شيئاً فشيئاً حتى وصلوا الى الدرك الاسفل من الفقر والفاقة وقد فقدوا ما كان لهم من تأثير ونفوذ عند العرب فى الجزيرة العربية

---

(١) تاريخ الخميس جـ ٢ ص ٦٤
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٣
(٣) تاريخ الخميس جـ ٢ ص ٦٤
(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٣

وقد جاء الواقدى بقصة تدل على ما وصل اليـه اليهود بعد غزوة خيبر من سوء حال وغضاضة عيش فقال عمن انتهت اليه روايته : كانت عادتنا أن نخرج فى الجاهلية أثناء القحط من يثرب الى جهات خيبر وفدك حيث كنا نجدعند اليهود الثمار الوافرة والاموال الكثيرة وحيث كنا نقابل منهم بالحفاوة والاكرام فلما أدركنا الضغط الشديد بعد غزوة خيبر خرجنا اليهـا كعادتنا فوجدنا الدهر قد انقلب عليها ووجدنا الجدب قد ضرب أطنابه فيهـا حتى لم نجد أحداً من الاغنياء والاشراف بل كان معظم أهلها فى فقر مدقع يجهدون أنفسهم فى أعمال الفلاحة وكذلك لم نجد من بينهم من يقابلنا بتلك الحفاوة التى اعتدناها منهم فى الجاهلية بل كانوا ينظرون الينـا بعين البغض والانتقام وكان يهود نطاة والشق فى سوء شديد أما فى آطام الـكتيبة فقد شعرنا بأن حالة السكان أحسن فأقمنا بينهم مسرورين(١)

* * *

وهذه الوثيقة التاريخية أكبر برهان على سوء حال اليهود فى خيبر بعد الغزوة فضلا عن أنها تؤكد ما جاء فى سيرة ابن هشام عن الدمار والخراب الذى أصاب خيبر أثناء الغزوة

أما وجود منطقة الـكتيبة فى حالة أحسن مما كانت عليه منطقتا نطاة والشق فيرجع الى أن أغلب آطامها صالح الرسول فأقامهم على أراضيهم ولم يمس الانصار من حدائقهم وذراريهم شيئاً

---

(١) الواقدى ص ٢٩٣

# الباب التاسع

# اجلاء اليهود عن البلاد الحجازية

وقوف الخصومة بين اليهود والمسلمين بعد غزوة خيبر — عبد الله بن أبى واليهود — وجود عناصر يهودية فى المدينة طول حياة الرسول — كتب الرسول الى بطون العرب واليهود — الصحيفة الى آل بنى حنينة — رأى صاحب فتوح البلدان فى هذه الصحيفة — اكتشاف نص الكتاب فى المقبرة اليهودية بمصر — رأى المؤلف فى هذه الصحيفة — حالة اليهود فى البلاد الحجازية بعد وفاة الرسول — لماذا طرد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أغلب يهود خيبر ؟ — أحاديث نبوية فى هذا الموضوع — قصة ابن هشام فى اجلاء عمر بن الخطاب طوائف اليهود — رأى ابن سعد صاحب الطبقات فى هذا الموضوع — صحيح البخارى وأحاديثه فى هذا الموضوع — وجود اليهود فى بلاد الحجاز الى نهاية القرن الحادى عشر للميلاد — بقايا طوائف اليهود فى بلاد العرب الى الآن

قلنا إنه كان من نتائج غزوة خيبر ان قضى قضاء تاما على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت لليهود فى اقاليم الحجاز

وقد ترتب على هذا أنه انقطعت الخصومة بين المسلمين واليهود ووقف تيار المطاعن والمثالب التى كانت متبادلة بين الطرفين

ويدل على ذلك أن الرسول لم ينزل عليه شىء كثير من الآيات القرآنية التى تتضمن ذم اليهود والطعن فيهم بعد هذه الغزوة على خلاف ما كان من ذلك فى الفترة التى كانت بين يوم بدر وغزوة خيبر

وقد عاش اليهود الذين لم ينزحوا من الحجاز مطمئنين لا يمسهم أحد بسوء وعاد عدد منهم الى المدينة بدليل ماجاء لبعضهم من ذكر فى سيرة ابن هشام وفى

كتاب المغازى للواقدى وقد استنتجت مما قرأت فى هذين الكتابين عن البقية الباقية من اليهود فى المدينة بعد غزوة خيبر أنهم كانوا جميعاً من بنى قينقاع وقد كان هؤلاء قد جلوا عنها فما هو السر فى عودتهم اليها وما هى الاسباب التى دعت الى ذلك ؟ لم يكن من سبب لاجلاء بنى قينقاع عن المدينة الا امتناعهم عن اعتناق الدين الاسلامى فهم لم يرتكبوا شيئاً من الجرائم التى توغر صدور المسلمين وتملؤها بالحقد والضغينة عليهم بعد توطيد سلطانهم وتثبيت قواعدهم واذن فليس ما يمنع من عودة بعض الاسر من بنى قينقاع الى المدينة واستيطانهم فيها لا سيما وان وجودهم فى المدينة كان ضروريا للانتفاع بهم فى استثمار الاموال الكثيرة التى جلبت الى يثرب من غنائم البطون العربية واليهودية المغلوبة على أمرها وكان بنو قينقاع يحسنون كثيراً من الصناعات لا سيما صناعة الصياغة

أما العرب فلم تكن لهم خبرة بهذه الصناعات من أجل ذلك تغاضى الانصار عن رجوع بعض اليهود الى يثرب فأقبل عدد منهم عليها وعكفوا يعملون فى أعمالهم القديمة

ولما توفى عبد الله بن أبى بكى عليه اليهود ووقف النبى على قبره وعزى ابنه وألبسه قميصه(١)

وقد خرجت نساء الاوس والخزرج جميعاً الى جميلة ابنة عبد الله وشاركنها فى البكاء عليه وضربن بأيديهن على وجوههن وكثر القوم من بنى قينقاع والمنافقون حول سريره حين لفظ نفسه الاخير أثناء مرضه فأغضب ذلك ابنه الحنيف حتى هم فى ذات يوم أن يغلق الباب فى وجوههم فمنعه والده وقبح فعله وأنحى عليه باللائمة وقال له دعهم فان قربهم منى يشفى صدرى العليل ويخفف من آلامى فقد شاركونى فيما نزل بى من النوائب وقد كان عبد الله بن أبى مبجلا

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ١٥٦

فيهم حتى قالوا له ياعبد الله نود أن نفديك بدمائنا وأموالنا . . . ولما مات أرادوا أن يستأثروا بدفنه دون الأنصار ولكن عبادة بن الصامت أمر بضربهم وقام المسلمون بأعمال الدفن وظل الرسول أثناء ذلك واقفاً لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الضريح بالتراب وتوارت الجثة عن العيون وأخذ بنو قينقاع والمنافقون ينثرون التراب على رؤوسهم من شدة الحزن والألم . . . (١)

وقد أثرت هذه النصوص التى نقلتها آنفاً فى العلماء المستشرقين وحملتهم على أن يشكوا فى صحة بعض الأحاديث التى تقول إن البقية الباقية من اليهود فى المدينة قد تم جلاؤها عنها فى حياة الرسول (٢)

ويؤيد شكهم ما وجدنا من روايات ونصوص تاريخية تدل على أن الرسول كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح حتى انه أوصى عامله معاذ بن جبل ( بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم )(٣)

وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين اذ لم يكلفوا الا دفع الجزية و بقوا متمسكين بدين آبائهم . . . (٤)

وقد دخل يهود بنى غادية وعريض فى حلف الرسول كما يحدثنا ابن سعد فى مصنفه عن ( بعثة رسول الله الرسل بكتبه ) : وكتب رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى غادية أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عدى ولا جلاء الليل مدّ والنهار شد وكتب خالد بن سعد وهم قوم من يهود . . . وكتب رسول الله بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى

---

(١) الواقدى ص ٤١٥

(٢) ولصاحب كنز العمال حديث يقول ان عمر أجلى اليهود من المدينة فقالوا أقرنا الرسول وأنت تخرجنا قال أقركم النبي وأنا أرى أن أخرجكم فأخرجهم من المدينة ( ج ٢ ص ٣٠٣ ) : ( حديث ٦٣٥١ )

(٣) البلاذرى ص ٧١

(٤) البلاذرى ص ٧٨

عريض طعمة من رسول الله عشرة أوسق قمح وعشرة أوسق شعير فى كل حصاد وخمسين وسقا تمرا يوفون فى كل عام لحينه لا يظلمون شيئاً وكتب خالد بن سعيد و بنو عريض قوم من يهود . . . (١)

وأهم من كل هذا تلك الحقوق والامتيازات التى منحها الرسول لآل بنى حنينة وأهل مقنا فقد وصلت الينا وثيقة تاريخيـة فى هذا الصدد من مرجعين مختلفين ونحن ننقل النصين لنقارن بينهما ونستخلص منهما بعض النتائج المرتبطة بموضوعنا

يقول صاحب المرجع الأول وهو البلاذرى : إن الرسول صالح أهل مقنا و بنى حبيبة ( الصواب حنينة ) على ربع عروكهم وغزولهم ( العروك خشب يصطاد عليه ) وربع كراعهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم وكتب اليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمـد رسول الله الى بنى حبيبة ( حنينة ) وأهل مقنا سلم أنتم فانه أنزل على أنكم راجعون الى قريتكم فاذا جاءكم كتابى هذا فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به لا شريك لكم فى قرينكم الا رسول الله يجيركم كما (٢) يجير منه نفسه فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة الا ما عفا عنـه رسول الله أو رسول رسول الله وأن لكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم وربع ما اغتزلت نساؤكم وانكم قد ثريتم بعـد ذلكم ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة ان سمعتم وأطعتم أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ومن ائتمر فى بنى حبيبة ( حنينة ) وأهل مقنا من المسلمين فهو خير له ومن أطلعهم بشر فهو شر له وليس عليكم أمير الا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله . . .

---

(١) بعثة رسول الله الرسل بكتبه : ابن سعد ص ١٨ طبع العالم Wellhausen : برلين
(٢) لعلها : مما

وكتب على بن أبى طالب فى سنة ٩ . . . (١)

ويضيف المؤلف الى هذه الوثيقة التاريخية أنها وصلت اليه من بعض أهل مصر الذين رأوا الصحيفة بعينها وهى من جلد أحمر دارس الخط

وأما النص الآخر لهذه المعاهدة فقد وصل الينا بعد اكتشاف آثار قديمة فى المقبرة اليهودية بمدينة الفسطاط حيث عثر عليه تحت أنقاض وهذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا كتاب من محمد رسول الله لحنينة ولأهل خيبر وآل مقنا وذراريهم ما دامت السموات والارض

( سلام ) أنتم إنى أحمد اليكم الله الذى لا إآله الا هو . . .

أما بعد فانه أنزل الوحى انكم راجعون الى قراكم وسكنى داركم فارجعوا آمنين بأمان الله وأمان رسوله ولكم ذمة الله وذمة رسوله ولكم ذمة الله على أنفسكم ودونكم وأموالكم ورقيقكم وكل ما ملكت أيمانكم وليس عليكم أداء جزية ولا تجز لكم ناصية ولا توطأ أرضكم ولا تحسدون ( ولا تحرشون ؟ ! ) ولا تصلمون ولا يجعل أحد عليكم ولا تمنعون من لباس المشققات والملونات ولا من ركوب الخيل ولباس أصناف السلاح ومن قاتلكم فقاتلوه ومن قتل فى حربكم فلا يقاد به أحد منكم ولا له دية ومن قتل منكم أحد المسلمين تعمداً فحكمه حكم المسلمين ولا يعتدى عليكم بالفحشاء ( ولا تجزلون منزلة ؟ ! ) أهل الذمة وان استعنتم تعانون وان استرفدتم ترفدون ولا تطالبون ببيضاء ولا بصفراء ولا بسمراء ولا كراع ولا حلقة ولا يقطع لكم شسع نعل ولا تمنعون دخول المساجد ولا تحجبون من ولاية المسلمين ولا يولى عليكم الا منكم أو من أهل بيت رسول الله ( واسع ؟ ) لجنائزكم الى أن تصير الى موضع الحق واليقين وتكرموا لكرامتكم

---

(١) البلاذرى ص ٦٠

ولكرامة صفية ابنة عمكم وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين أن يكرموا كريمكم ويعفوا عن مسيئكم ومن سافر منكم فهو فى أمان الله وأمان رسوله ولا اكراه فى الدين ومن منكم اتبع ملة رسول الله ووصيته كان له ربع ما أمر به رسول الله لاهل بيته تعطون عطاء قريش وهو خمسون ديناراً ذلك بفضل منى عليكم وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما فى هذا الكتاب فمن اطلع الى حنينة وأهل خيبر ومقنا بخير فهو خير له ومن اطلع له بشر فهو شر له ومن قرأ كتابى هذا أو قرئ عليه وغير أو خالف شيئاً مما به فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين من الملائكة والناس أجمعين وهو برىء من ذمتى وشفاعتى يوم القيامة وأنا كاظمه ومن كاظمنى فقد كاظم الله فهو فى النار وكفى بالله شهيداً وبملائكته وبمن حضر من المسلمين وكتب على بن أبى طالب بخطه ورسول الله أملى عليه حرفاً حرفاً يوم الجمعة للثلاث الاول خلت من رمضان سنة خمس مضت من الهجرة شهد عمار بن ياسر وسلمان الفارسى مولى رسول الله وأبو ذر الغفارى . . . . (١)

ويظهر أن هذه المعاهدة التى استخلص صاحب فتوح البلدان خلاصتها ووصفها فى كتابه انما كانت معروفة لدى العلماء والمؤرخين من العرب فى مصر وقد حافظ عليها اليهود فى مدة قرون طويلة الى أن اندثرت مدينة الفسطاط فى عهد الفاطميين وأصبحت قاعاً صفصفاً فدفنت هذه الصحيفة تحت أنقاض منازل يهودية الى أن اكتشفت حديثاً

لكن لا شك أن هذه الصحيفة ملفقة كما لفقت صحائف ومعاهدات كثيرة جداً بعد أن انتقل الرسول الى دار ربه لان الذين كانت بأيديهم معاهدات صحيحة قد أقرهم عليها الخلفاء الراشدون ولم ينقضوا من شروطها شسع نعل ( كما تقول هذه المعاهدة )

---

(١) Jewish Quarterly Review XV ص ١٦٩

وانا لنعلم أن بطوناً عربية كثيرة اندفعت الى تزوير الكتب باسم الرسول وقد حافظت عليها

ولا غرو أن تظهر رسائل ملفقة فى عصر الاضطرابات التى حلت فى الاقاليم الاسلامية من جراء الخصومة التى ظهرت بين الامام على بن أبى طالب و بين عصبة معاوية بن أبى سفيان بعد مقتل عثمان بن عفان فعلى ذلك قد يكون لنا الحق كل الحق أن نشك فى صحة هذه المعاهدة التى نحن بصددها

لكن ما لا شك فيه أن الرسول قد منح أسراً غير قليلة من أهل خيبر حقوقاً لم يمنحها لبقية اليهود ما عدا الاقرار على الاراضى وابقاءه لهم نصف الثمار فان هذا كان من حق كل يهود خيبر وقد نص على ذلك ابن هشام والبخارى كما نصا على أنه كانت هناك عقود وعهود بين الرسول و بين أسر يهودية فى خيبر كما سيتضح ذلك فيما بعد

أما أسلوب هذه الصحيفة ولغتها ففيها شبه كبير بنصوص المعاهدة الكبيرة التى عقدها الرسول مع اليهود بعد هجرته الى يثرب وهذا حمل بعض المستشرقين على الاعتقاد بان معاهدة من هذا النوع لم تكن ملفقة لانها كانت موجهة الى آل صفية زوج الرسول أى الى حنينة فى مقنا وخيبر

وأما الاسباب التى حملتنا على أن نشك فى صحة هذه الصحيفة فهى :

( ١ ) لم يكن المسلمون أثناء حياة الرسول يؤرخون بالهجرة لان هذا لم يتقرر الا فى زمن خلافة عمر بن الخطاب على أن سنة خمس التى وجدت فى ذيل هذه المعاهدة انما تدل على أن كاتبها كان يجهل جهلا تاماً تاريخ غزوات الرسول

(٢) لان مسير المسلمين الى خيبر كان فى سنة سبع من الهجرة ولا يحتمل أن يعقد الرسول عقدا مع آل زوجه صفية قبل التحاقها به وقد كانت هى السبب الوحيد فى منح الرسول آل بنى حنينة تلك الحقوق الكثيرة اذا فرضنا صحة هذه الصحيفة .

(٣) ان السنة الخامسة للهجرة كان النزاع فيها بين الرسول واليهود على أشد ما يكون من الحدة والقوة وقد نزل فى تلك السنة بعض آيات قرآنية تكاد تكون من نار تطعن فى اليهود وتؤنبهم تأنيبا شديداً فليس معقولا أن يعقد الرسول فى تلك السنة مثل هذا العقد مع أسرة حنينة الخيبرية دون أن يكون هناك عامل خاص يدفعه الى ذلك لاسيما أن آل صفية كانوا من زعماء القوم ومن أشدهم معارضة فى تنفيذ مشروعات الرسول الدينية والسياسية

(٤) المفهوم أن المعاهدة لم تكن تشمل أهل خيبر ومقنا جميعاً كما جاء فى المعاهدة حيث يقول فيها « الى حنينة وأهل خيبر ومقنا » بل كانت موجهة الى حنينة وأهله فى خيبر ومقنا لان هذه الحقوق والامتيازات لم تمنح الا لآل صفية دون غيرهم من اليهود وقد غير هذا التلفيق اليسير معنى المعاهدة جميعها

(٥) تنص المعاهدة على أن الرسول يسمح لكل يهود خيبر بان يحملوا السلاح والا يعاقبوا على قتل المشركين فهى حقوق لم تمنح لقوم مغلوبين لانها بمثابة تمكينهم من وسائل الاخذ بالثار والانتقام ممن غلبوهم وأذلوهم

(٦) وتنص المعاهدة على أن كل أهل خيبر يمنحون من العطاء مثل ما يمنح لبطون قريش على أن هذا العطاء بهذا المعنى لم يصرف أيام النبى فضلا عن تحديده بخمسين دينارا

وغير ذلك مما جاء فى الصحيفة من الحقوق والامتيازات التى لم تكن الا لآل الرسول دون سواهم من الناس وغير معقول أن الرسول يمنح اليهود حقوقا لم يمنحها لعامة المسلمين وأن يسوى بينهم و بين آل بيته

(٧) على أن حوادث عمر بن الخطاب مع يهود خيبر دليل كاف على عدم وجود حقوق من هذا النوع لكل يهود خيبر كما سنوضح ذلك فيما بعد

على أن هذه العقود التى كانت لبعض الأسر لم تغير بوجه عام الحال التى آل اليها اليهود فى البلاد الحجازية لانهم لم يرجعوا الى ما كانوا عليه فى الجاهلية

من ثروة طائلة وسلطان كبير بل أخذوا فى التدهور شيئا فشيأ ولم تفد كل الظروف الحسنة التى صادفتهم بعد ذلك فى ايقاف حركة هذا التدهور

والسبب فى ذلك يرجع الى المراقبة الشديدة التى وضعت على حاصلاتهم الزراعية وثمار أشجارهم التى كانوا يدفعون نصفها لاصحاب الاسهم من المسلمين أما النصف الباقى فلم يكن كافيا لتموين سكان خيبر ولم يكن ذلك كفيلا بأن يوجدهم كحالتهم الاولى . . .

ثم جاء عمر أمير المؤمنين فأمر باجلاء أغلب بطون اليهود من خيبر وفدك كما يذكر ذلك ابن هشام فيقول : كان الرسول يبعث عبد الله ابن رواحة الى خيبر فيقسم ثمارها و يعدل عليهم فى الخرص فلما توفى الله نبيه أقرها أبو بكر بأيديهم على المعاملة التى عاملهم عليها الرسول حتى توفى ثم أقرها عمر صدرا من امارته ثم بلغ عمر أن رسول الله قال فى وجعه الذى قبضه الله فيه لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت فأرسل الى اليهود فقال ان الله عز وجل قد أذن فى جلائكم فقد بلغنى أن رسول الله قال لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتنى به أنفذه له ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله منهم . . . (١)

ومن هنا نستنتج أنه كانت هناك عقود لبعض الاسر اليهودية وأن عمر الذى أمر باجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر وفدك لم يتعرض ليهود وادى القرى وتيماء بسوء

ويؤخذ من هذا أن أهل وادى القرى وتيماء كان لهم عقد خاص لم يسمح للخليفة باخراجهم من بلادهم لا كما يعتقد بعض مؤرخى العرب أن تيماء ووادى

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٧

القرى لم تكن من أرض الحجاز لان الحدود فى تلك الازمنة لم تكن معينة بدقة الى درجة أن يقال إن وادى القرى ليس داخلا فى الحدود الحجازية بل بالعكس كان هذا الوادى منطقة تابعة لخيبر الحجازية وكان اليهود الذين يسكنونه يعتبرون من يهود خيبر

ويلفت العالم Leszynsky نظر الباحثين الى بعض أحاديث تتضمن الامر باخراج اليهود من بلاد الحجاز كحديث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب . . . وحديث أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب . . . وحديث أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب . . . . (١) . ويشك العالم المذكور فى صحة هذه الاحاديث ويقول إنها قيلت بعد وفاة الرسول لاغراض خاصة . . . (٢) ثم أن المسلمين لا يعولون على الاحاديث الا اذا كانت صحيحة ولهم فى قبولها ترتيب خاص فأهمها أحاديث البخارى ثم أحاديث مسلم وفى الدرجة الثالثة باقى الكتب الستة

ولابن اسحاق قصة أخرى عن سبب اخراج عمر بن الخطاب طوائف اليهود من خيبر ويقول : حدثنى نافع عن ابن عمر قال خرجت أنا والزبير والمقداد بن الاسود الى أموالنا بخيبر نتعاهدها فلما قدمنا تفرقنا فى أموالنا قال فعدى على تحت الليل وأنا نائم على فراشى ففدعت يداى من مرفقى فلما أصبحت استصرخ على صاحباى فأتيانى فسألانى من صنع هذا بك فقلت لا أدرى قال فأصلحا من يدى ثم قدما بى على عمر فقال هذا عمل يهود ثم قام فى الناس خطيباً فقال أيها الناس ان رسول الله كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم اذا شئنا وقد عدوا على على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم مع عدوهم على الانصارى قبله لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق بى

---

(١) كنز العمال ج ٢ ص ٢٧٤ طبع حيدر آباد — حديث ٥٨٧٣ و ٧٤ و ٧٥

(٢) Die Juden zu Medina ص ١١٣

فانى مخرج اليهود فأخرجهم . . . ولما أخرج عمر اليهود من خيبر ركب فى المهاجرين والانصار وخرج معه جبار بن صخر وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم فقسم خيبر على أهل جماعة الاسهم . . . [١]

أما ابن سعد فلم يأت بهذه القصص و يقول : ان رسول الله لما أفاء الله عليه خيبر قسمها على ستة وثلاثين سهماً جمع كل سهم مائة سهم وجعل نصفها لنوائبه وما ينزل به وعزل النصف الآخر فقسمه بين المسلمين وسهم النبى فيما قسم بين المسلمين الشق ونطاة وما حيز معهما وكان فيما وقف الوطيحة والكتيبة وسلالم وما حيز معهن فلما صارت الأموال فى يد النبى وأصحابه لم يكن لهم من العمال ما يكفون عمل الأرض فدفعها النبى الى اليهود يعملونها على نصف ما يخرج منها فلم يزالوا على ذلك حتى كان عمر بن الخطاب وكثر فى يد المسلمين العمال وقووا على عمل الأرض فأجلى عمر اليهود الى الشام وقسم الأموال بين المسلمين[٢]

فعلى ذلك يتضح جلياً أن السبب الذى حمل عمر على اجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر يرجع الى كثرة الأيدى العاملة من الأسرى الذين كثروا عند العرب بعد فتوح بلاد الشام والعراق وفارس وكان هؤلاء الأسرى ذوى خبرة بالأعمال الزراعية كيهود خيبر

ولما كان يهود خيبر يدفعون نصف حاصلات الأرض آثر المسلمون أصحاب الأسهم أن يكون لهم كل هذه الحاصلات ليتمكنوا من تموين أسراهم الكثيرين من جهة وليوجدوا لهؤلاء الأسرى عملا يقومون به من جهة أخرى فأشاروا على أمير المؤمنين باجلاء البطون التى لم تكن لها عقود خاصة مع الرسول

ويحدثنا البخارى أن عمر أجلى يهود خيبر الى تيماء وأريحاء[٣]

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٧

(٢) ابن سعد جـ ٢ ص ٨٢

(٣) البخارى جـ ٢ ص ٧٢ — وص ٢٩٠



To: www.al-mostafa.com

وللواقدى رواية تؤيد صحة ما رواه البخارى يقول فيها : ان عمر أجلى آل الحارث أبي زينب المشهورين الى اريحاء بأرض فلسطين وكان أحد أبناء الحارث قد التقى فى يوم من الأيام بقافلة من الاعراب فى جهات أريحاء وهى راجعة من الشام الى خيبر فنزع ابن الحارث الى وطنه وحن اليه واشتد به الشوق حتى آلمه الامر فخاطب الاعراب بقوله انه كان يود يوم أجلى عمر أسرته من خيبر أن يدخل فى الاسلام حتى لا يبعد عن أرض أجداده ولكنه خشى أن يحتقره الخلف ويقولون لقد ضحى الحارث بحياته وأسرته ووطنه لاجل دينه ودين آبائه فجاء ابنه فغدر به . . . (١)

أما الاسر التى كانت لها معاهدات خاصة مع الرسول فقد أقرها عمر وأقامت على أملاكها وأموالها

وقد بقيت الاغلبية لليهود فى وادى القرى الى القرن الحادى عشر وكذلك وجدت طوائف منهم فى جهات تيماء فى القرن الثانى عشر للميلاد

ثم انعدم وجودهم فى الحجاز وأطرافها شيئاً فشيئاً حتى اختلطوا فى بقية الاعراب واندمجوا فيهم وكان ذلك بسبب الضغط الشديد الذى حل بهم فى عصور الاضطرابات التى حدثت بعد ان تسرب الوهن والاضمحلال الى الدولة العباسية

* * *

أما فى بلاد اليمن فقد بقى فيها اليهود طول العصور القديمة ولم يزل لهم وجود فى جهات مختلفة من أطراف الجزيرة العربية الى أيامنا هذه رغم الرزايا التى لحقت بهم فى ظروف شتى ، والله يحكم لا معقب لحكمه

(١) الواقدى ص ٢٧١

# المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عبرية وعربية وأفرنجية

## مصادر عبرية


תורה נביאים וכתובים (תנך)

תלמוד בבלי

דברי ימי ישראל ד״ר שמחוני

היסתוריה ישראלית ד״ר קלויזנר

דברי ימי ישראל גרץ

בכורי העתים


## مصادر عربية


القرآن الكريم

سيرة ابن هشام — طبع مصر

فتوح البلدان للبلاذرى — طبع ليدن

تاريخ الخميس للديار بكرى — طبع أوربا

صحيح البخارى — طبع ليدن

كتاب المغازى للواقدى — طبع برلين ( ترجمة المانية )

أمثال الميدانى — طبع مصر

تاج العروس — « «

| | |
|---|---|
| معاهد التنصيص | طبع مصر |
| نوادر أبي زيد الانصارى | « بيروت |
| ديوان السموءل لنفطويه | « « |
| طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى | « مصر |
| تاريخ اليعقوبى | طبع أوربا |
| خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى | « بولاق |
| تاريخ الامم والملوك للطبرى | « مصر |
| تاريخ ابن خلدون | « « |
| تاريخ الامم الاسلامية للخضرى بك | |
| طبقات ابن سعد | طبع برلين |
| كنز العمال ( مجموعة من الاحاديث النبوية ) | طبع حيدر آباد بالهند |
| أديان العرب تأليف الشيخ محمد نعمان الجارم | |
| بعثة رسول الله بكتبه لابن سعد | طبع برلين |
| كتاب الاغانى للامام أبى الفرج الاصبهانى | طبع مصر |
| ديوان الحماسة لابى تمام | طبع مصر |
| مقالة فى الاسلام من كتب المبشرين | |
| الروض الانف شرح لسيرة ابن هشام | طبع مصر |
| معجم البلدان لياقوت | |
| مجلة الجامعة المصرية | |

# مصادر افرنجية

## ( المانية وانجليزية وفرنسية )

R. Dozy : Die Israeliten zu Mekka.

Margolioth : The relation between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam.

Burney : Israel's settlement in Canaan.

Caussin de Perceval L'histoire des Arabes avant L'Islamisme.

Wellhausen Y : Skizzen & Vorarbeiten.

Glaser : Sammlung.

Glaser : Skizzen der Geschichte und Geographie Arabiens bis Mohamed.

Wuestenfeld : Geschichte der Stadt Medina.

Cilvester deSacy : Memoires sur divers evenement de l'histoire des arabes avant Mahomet.

Lamence : Les Juives a la Meque,

Nicholson : A literary history of the Arabs.

Leszynsky : Die Juden zu Medina.

Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft.

Jewish Quarterly Review

Journal Asiatique.

# فهرس


| الموضوع | صحيفة |
|---|---|
| مقدمة لحضرة الدكتور طه حسين أستاذ آداب اللغة العربية بالجامعة المصرية . . . . . . . . . . | ج — ه |
| تصدير للمؤلف . . . . . . . . . . | و — ك |
| الباب الاول : اليهود فى بلاد الحجاز . . . . . . . | ١ — ٣٤ |
| الباب الثانى : ظهور اليهودية فى بلاد اليمن . . . . . . | ٣٥—٤٩ |
| الباب الثالث : بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود . . . | ٥٠—٨٠ |
| الباب الرابع : أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية فى بلاد الحجاز قبيل ظهور الاسلام . . . . . | ٨١—٩١ |
| الباب الخامس : مكة و يثرب ازاء الحركة الاسلامية . . . | ٩٢—١٠٩ |
| الباب السادس : هجرة الرسول الى يثرب واجلاؤه بنى قينقاع والنضير عنها . . . . . . . . . . | ١١٠—١٣٢ |
| الباب السابع : غزوة بنى قريظة . . . . . . . . | ١٣٣—١٥٦ |
| الباب الثامن : غزوة خيبر . . . . . . . . . | ١٥٧—١٧٤ |
| الباب التاسع : اجلاء اليهود عن البلاد الحجازية . . . . . | ١٧٥—١٨٦ |
| المراجع . . . . . . . . . . . . . | ١٨٩ |